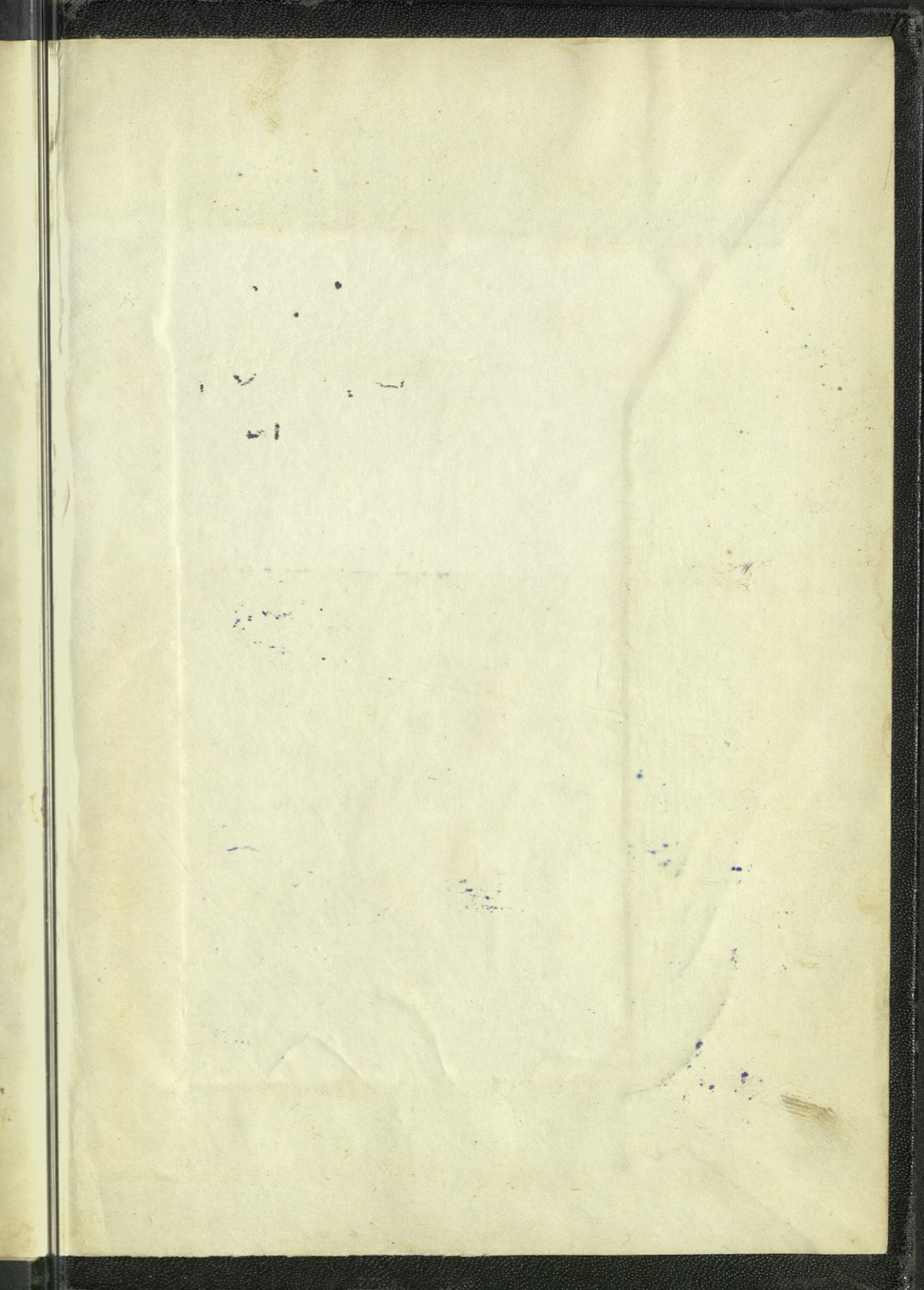


حسین

بین بین

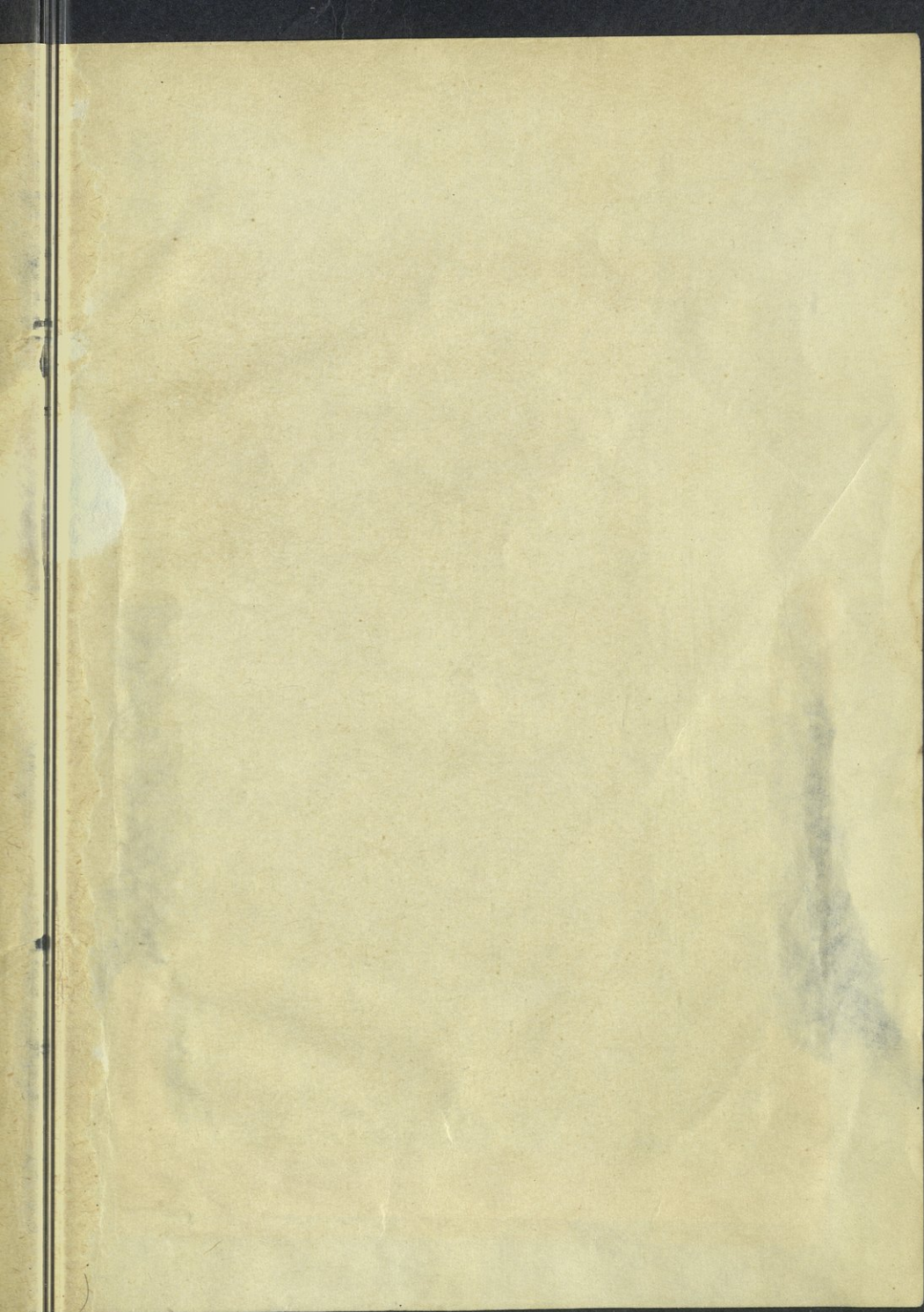


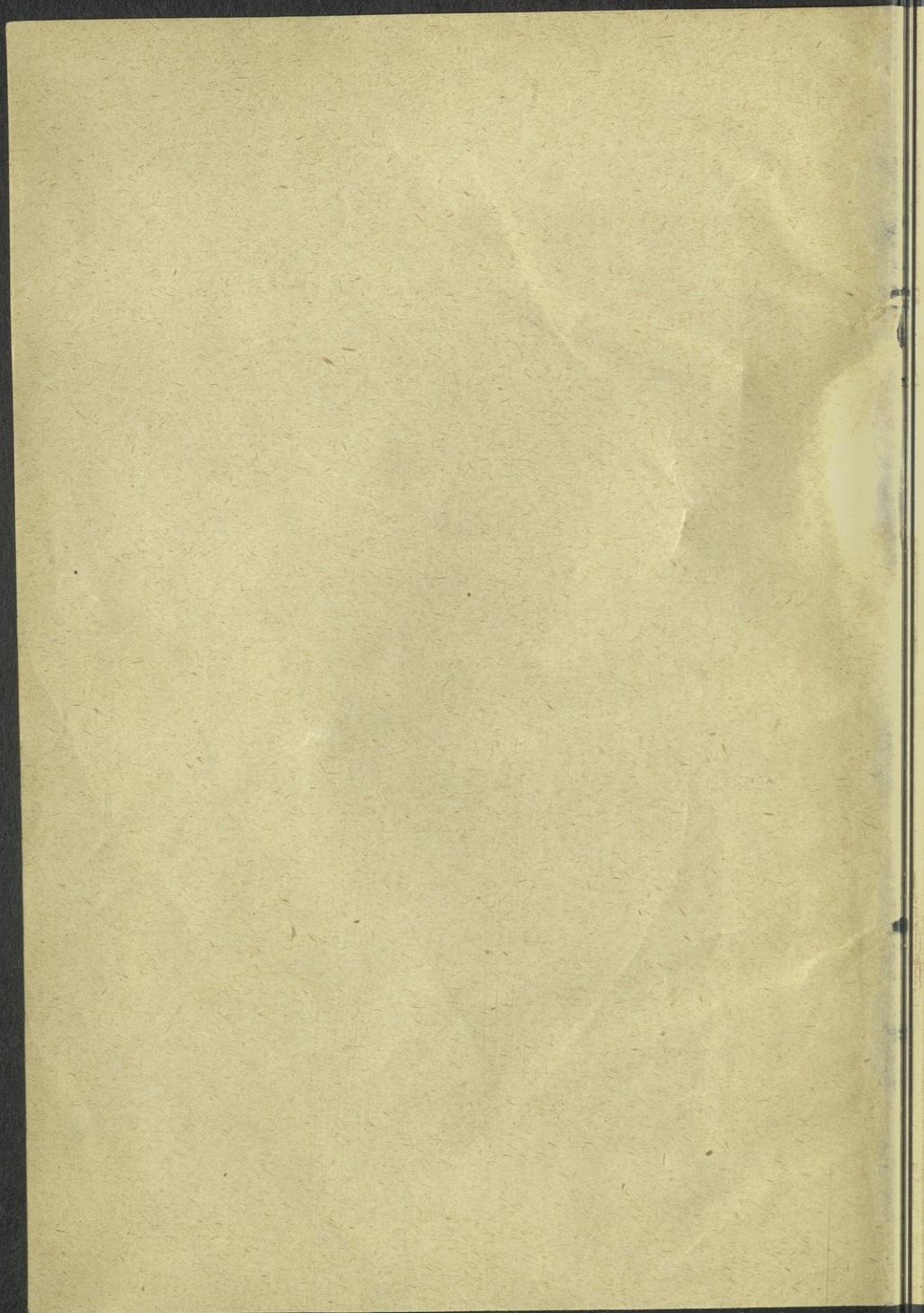




AFET LI









128  
A

طهين

892.78

Ha 3924 bA

C.1



# بَيْنَ بَيْنَ

لغة

لدين

دار العلم للملايين  
بيروت





الطبعة الأولى  
بيروت ، تشرين الثاني ١٩٥٢

## بَيْنَ الْإِدْبِ وَالسِّيَاسَةِ هَدٌّ وَهَزَلٌ

نعم جدّ وأي جدّ ، لك ما شئت وما لم تشأ ان  
استطعت ان تظفر بجدّ أحزم وأصرم وأعظم وأقوى من  
هذا الجد الذي يلم بالحياة المصرية في هذه الايام فيشير في  
بعض نواحيها حزناً لا يشبهه حزن ، وفي بعض نواحيها  
الاخرى سروراً لا يقاس اليه سرور .

نعم وهزل أي هزل ، لك ما شئت وما لم تشأ ان  
استطعت ان تظفر بهزل ابدع او اروع او أخف على  
الروح او ادعى الى الضحك او أقدر على التلمية والتسلية من  
هذا الهزل الذي يلم بالحياة المصرية في هذه الايام فيشير في  
بعض نواحيها قهقهة وإغراقاً في القهقهة ، ويشير في بعض  
نواحيها الاخرى بكاء لا يبخل أصحابه بالدموع .  
وتعال معي يا سيدي فانظر عن يمين ، ثم انظر عن



شمال واسمع لما يأتيك من هذا الوجه ثم اسمع لما يبلغك من ذلك الوجه ، ثم حدثني او حدث الناس بما ترى وما تسمع ان استطعت ان تخلص للحديث ، فاني اخشى ان ترى من ملكهم الحزن فتحزن او ترى من ملكهم الضحك فتفرق معهم فيما هم مغرقون فيه .

انظر يا سيدي الى يمين فسترى أصحاب الجاه الرفيع والعز المنيع والسلطان الواسع والصوت البعيد قد رُدَّوا الى حياة لو انها برئت من الجاه والعز ، وخلت من سعة السلطان وبعد الصوت ، لكأنت على أصحابها شراً ونكراً ، ولكنها امتلأت بالعبر التي جعلتها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وعظة لمن يستطيع ان يتعظ ودرساً لمن يحسن ان يفهم عن الايام ما تلقى من دروس .

انظر يا سيدي عن يمين فسترى الابراشي باشا كاسف البال ضيق الصدر ، شاحب الوجه ، مقطب الجبين ، مخفوض الرأس ، مقوس الظهر ، مطبق الفم ، معقود اللسان ، وسترى من حوله الغرور وبنات الغرور ، ثم اليقظة وبنات اليقظة وهن يتراقصن ، ويتبادلن فيما بينهن أحاديث عنيفة لينة فيها حزن ويأس ، وفيها سخرية ودعابة ، والرجل بين هؤلاء الراقصات يقظان كالنائم ، ونائم كاليقظان ، قد زلزلت به الارض زلزالاً شديداً ، لم يتصل ، ولم يطل أمده ، ولكن الارض على



ذلك ما زالت تدور به ، وتضطرب من تحته ، حتى أصبح  
لا يملك قدرة على ان يحقق شيئاً ، او يثبت في نفسه شيئاً  
او يفكر في شيء ، أو يقدر شيئاً ، انما هو داخل مأخوذ  
يرى هؤلاء الراقصات يضطربن من حوله بعضهن ينتجن  
ويبعثن في الجو نشيجاً وزفيراً ، وبعضهن يضحكن ويبعثن  
في الجو صياحاً متصلاً ، فيه الرضى وفيه الابتهاج ، وفيه  
السخر من طغيان الطغاة والاستهزاء بظلم الظالمين ، والاستخفاف  
بهذه الامال العذاب الكذاب ، التي تملأ الانسان غروراً  
وجهاً ، وحقاً وثقة بالنفس ، واطمئناناً الى الايام ، والرجل  
يرى ولا يحقق ، والرجل يسمع ولا يفهم ، والرجل قد  
أخذ هذا الذهول حتى إنه ليود لو استطاع ان ينهض  
فيرقص مع هؤلاء الراقصات ، المحزونات ، أو يدور مع  
هؤلاء الدائرات المبتهجات . ولكنه واهن ، خائر القوى ،  
منهوك الجسم كما انه منهوك العقل ، قد سكن هو واضطرب  
من حوله كل شيء ، بل سكن جسمه واضطرب في نفسه  
وعقله وقلبه وجوفه كل شيء .

ثم انظر يا سيدي وأبعدِ النظر قليلاً فسترى رجلاً آخر  
قد تقدمت به السن ، بعض الشيء وأرسلت على صدره  
لحيته إرسالاً ودارت على رأسه خرقه بيضاء ، هو جاثم في  
مكانه يهيم أن يقول فلا يستطيع أن يقول ، يهيم ان يعمل



فلا يستطيع ان يعمل ، بهم ان يفكر فلا يستطيع ان  
 يفكر ، وانما أخذت عليه طرق القول والعمل والتفكير  
 أشباح لا تنقطع تمر أمامه متتابعة ، وهو يراها تخرج من  
 مكانها لا يستطيع لها رداً ، ولا يملك منها مهرباً ، ولا  
 يبلغ لها احصاء ، يرى كأن الارض تمر امامه مرأً ، ولا يمر  
 منها جزء إلا انفتح فيه قبر وخرج من هذا القبر شيخ او  
 اشباح ، وهو لا يدري ما خطب هذه الاشباح الي تطيف  
 به ، وتدور من حوله ، وتنشق له عنها الارض ، وتتفتح  
 له عنها القبور ، وهو يكاد يصيح لو استطاع الصباح ، ويكاد  
 يسأل لو أطاق السؤال ، ولكن هاتفاً يهتف به أرح نفسك  
 من السؤال والصباح ، فانما انت رجل تحب القبور ، وزيارة  
 القبور ، وانت رجل محزون مكدود ، لا تستطيع ان  
 تسعى اليها زائراً ولا عاتباً ، ولا متوسلاً ، ولا مستعظفاً  
 فهي تسعى اليك ، وهي تلم بك وتقف عندك وهي تقرأ  
 ما في نفسك ، وتفهم ما في قلبك ، لو كم تحب ان تجيبك الى  
 ما تبغى وتعينك على ما تريد لولا ان القبور لا تملك  
 للناس نفعا ولا ضراً ، ولا تغني عنهم من الله شيئاً . لقد  
 ألممت بالقبور إلاماً في اثر إلام وأطلت عند القبور مقاماً في  
 اثر مقام ، فانظر فهذه القبور تلم بك ، وتقيم عندك ،  
 ولقد وقفت عند القبور فهمت ودمدمت ، وزممت ومتممت ،



فاسمع لهذه الاشباح التي تنشق لك عنها القبور ، انها من  
حولك تهمهم وتدمدم ، وتؤمزم وتتمتم ، ولقد ضاعت  
جهودك عند القبور ، وجهود القبور ضائعة عندك ، لم تحفظ  
عليك قوتك حين كنت قوياً ، ولم تردّ عنك ضعفك حين  
اصبحت ضعيفاً ، الله وحده هو الذي يحفظ القوة على الاقوياء ،  
ويرد الضعف عن الضعفاء ، ولكنه قد قضى ألا يحفظ قوة  
على قويّ ، ولا يردّ ضعفاً عن ضعيف ، حتى يخلص له  
قلبه ، ونبيّته ، وقوله وعمله ، فليتك أخذت من بعض هذا  
بحظ ، فيغني عنك الان حين لا يغني أحد ، ولا شيء عنك  
من الله شيئاً . والرجل يرى ، والرجل يسمع ، والرجل لا  
يحقق ما يرى ولا يفهم ما يسمع ، وإنما هو قلب مضطرب  
وعقل مختلط ، ونفس مفرقة ، وخواطر مشردة ، وعبرة  
للمعتبرين ، وعظة للمتعطين .

وأبعد نظرك يا سيدي قليلاً ، فسترى أشباحاً ضئيلة  
نخيلة شاحبة ذائبة او كالذائبة تذهب وتجيء ، تقول وتعمل ،  
تتصرف تصرف الاحياء ، وليست من الحياة في شيء ، إنما  
هي حياة كالموت ، أو موت قد ترددت فيه انفس من  
حياة . وأطل النظر الى هذه الاشباح الزاهية الجائفة الرائحة  
الغادية ، فستبين بعد الجهد والغناء ، أشخاصها ، وستعلم  
انها اشخاص قوم كان اليهم الحول والطول ، وكان في



أيديهم الحل والعقد ، كانوا وزراء يأمرون وينهون ، يرفعون  
ويخفضون ، يذلون ويعزون ، يسيطون الرزق لمن يشاءون ،  
ويكفون الرزق عن يشاءون ، يقضون بأهوائهم فيما لا ينبغي  
أن يقضى فيه ، إلا بأحكام الدستور والقانون ، ولكنهم ألغوا  
الدستور واهدروا القانون ، واتخذوا من أهوائهم وشهواتهم  
نظاماً تقوم مقام الدستور والقانون . أنظر إليهم يا سيدي ،  
أين هم وسلهم ، أو سل عنهم يا سيدي ، ما خطبهم وماذا  
يصنعون . لقد لفظتهم الأرض ونبذهم الناس وانصرف عنهم  
أشد الناس إلحاحاً عليهم وحباً لهم ، وتهالكوا على تملقهم ،  
تحدث إليهم يا سيدي ان استطعت ، فلن تسمع منهم إلا  
ما يصور الضغينة والحقد ، والموجدة والبغض ، واليأس  
والقنوط ، والتحرق على ما مضى والتشوق الى ما لا سبيل  
اليه ، وصل الى ضمايرهم ان استطعت الوصول اليها ، فلن  
تري فيها ندماً ، ولا املاً ، ولا استغفاراً ، ولا اعتذاراً  
ولا توبة ولا نزوعاً الى التوبة ، لما هو الحزن اللاذع على  
نعيم مضى وانتهاز الفرصة وتربص الدوائر وملاطفة الاحلام ،  
لما قد تتكشف عنه الايام من نعيم تتقطع دونه الاعناق ،  
وتتمزق دونه القلوب ، وألقى نظرة واسعة عريضة يا سيدي  
الى هذه الاشخاص الذابلة الناحلة التي تدب على الارض  
دبيب النمل ، لم يدركها الموت المهلك ، ولم يبلغها اليأس



المرجع ، وانما هي عاملة جادة ، تملكت اولئك حتى ذهب  
عنهم السلطان ، وهي تنتهز الفرصة لتتملق هؤلاء ، ما أقبل  
عليهم السلطان ، تريد ان تملأ بطوناً لا تمتلئ ، وان تفعم  
جيوباً لا تفعم ، وان تصيب من لذات الحياة ما تبيع في  
سبيله القلوب والعقول ، والشرف ، والكرامة والضمائر ،  
والاخلاق . انظر انهم كثيرون كانوا شياطين مردة فأصبحوا  
اليوم ملائكة اطهاراً ، ينتظرون ان تتيح لهم الظروف  
خلع أجنحة الملائكة والدخول في أثواب الشياطين . انظر  
واسمع ولكني أراك محزوناً أسفاً كثيراً ، قد ضاقت نفسك  
بما ترى ، وما تسمع ، وقد صغر في نفسك كثير من  
المعاني والحاصل التي لم تكن تحب ان تراها صغيرة ولا حقيرة  
ولا متضائلة . قد ثقل عليك الجد فلا بأس عليك . أرح  
نفسك من الجد وتحول الى شال فانظر واسمع وحدثني عما  
ترى وما تسمع . وانظر غير بعيد الى التقاليد فسترى منظراً  
عجباً وستسمع أغاني أقل ما توصف به انها مضطربة مضحكة  
مسلية لذيدة أشد إثارة للذة وإيهاباً للنفس من أغنية السواقي  
السبع التي يتغنى بها الشباب في بعض الاحياء الوطنية ، ومن  
يتغنى السواقي السبع ، ويردد انغامها الحلوة والحنان المشجية  
اذا لم تتغن بها التقاليد . التقاليد ، وما ادراك ما التقاليد !  
انظر اليها فلن يثوب نظرك اليك ، ولن ينقضي عجبك



بما ترى .

هذا رجل ضخم فخم ، طويل عريض ، غليظ الوجه  
واسع الشدةين ، عظيم الانف ، عذب الصوت ، حلو الغناء .  
يا له من صوت ، ويا له من غناء . استمع ان كنت  
تحب الطرب ، واعجب ان كنت تريد العجب ، الا ترى  
الى هذه الاشياء الكثيرة المنتشرة المختلفة المتنوعة التي تضطرب  
من حوله ، بعضها يرقص ، وبعضها يدور ، بعضها يقفز في الجو  
وبعضها يثب في الهواء . تبين هذه الاشياء ، ان استطعت  
ان تتبينها وأحط بها إن اتيج لك ان تحيط بها . ان فيها  
الحي والميت ، ان فيها الصائح والصامت ، ان فيها الغالي  
والرخيص ، ان فيها المبتل والنفيس ، هذا ديك يصدح ،  
وهذه دجاجة تصيح ، وهذه ارنب تعدو ، وهذه أداة  
تدور ، وهذه حقيبة تمتلئ ، ثم تفرغ ، ثم تمتلئ ، ثم تفرغ .  
وهذا مصباح قد علّق ، وهو يضطرب اضطراباً ، ويدور  
حول نفسه دوراناً ، وهذا بساط قد نُشر في الجو ينتظر  
من يجلس عليه لطير به الى حيث يريد الله . وهذا نرد  
يدعو اللاعبين ، وهذا شجر قد اكتسى من خضر الورق ،  
وأتى من جميل الزهر ، وطيب الثمر ، وهذا مطر ينهمر  
انهاراً ، وتصبه السماء صباً ، ولكن أخطر ان تدنو منه ،  
فاني أخشى على رأسك ان يشجّ ، وعلى انفك ان يجدع



وعلى وجهك ان يصيبه أذى ، وعلى ذراعك ان تنحطم ،  
وعلى ساقك ان تندق ، ان السماء يا سيدي لا تمطر ماء ،  
ولا عسلاً ولا خلا ولا زيتاً ، ولكنها تمطر علباً مختلفة  
الاحجام ، متباينة الاشكال ، قد اختلفت فيما بينها وتنوعت  
محتوياتها ، ففي هذه « مربة » البوتقال وفي هذه « مربة » السفرجل  
وفي هذه « مربة » المشمش ، وفي هذه لون من ألوان الحلوى ،  
وفي هذه فن من فنون الفاكهة ، واحذر هذه التغيرات ،  
الغريبة التي لا تكاد تبلغ الارض حتى تنحطم عليها انحطاماً  
ويخرج منها شراب مختلف الوانه فيه ري للظما وفيه ملاقى  
للفم ، وفيه حلاوة وعدوبة وقد يؤدي بعض الخلق أحياناً ،  
انها زجاجات الشراب يا سيدي عصير العنب ، وعصير البوتقال ،  
وعصير الليمون . وانظر الى هذه الاقراص التي تدور لا  
تريد أن تتف ولا تحب ان تسقط ، وانما هي تدور في  
مكانها وتبعث من حولها روائح غريبة لا تحبها الانوف جميعاً  
ولكن من النفوس ما تطير من حبها شعاعاً . تبين هذه  
الاقراص يا سيدي ألم تعرفها بعد ؟ ألم يهدك اليها عبيرها  
هذا المنكر الغريب كما هدى عمر بن أبي ربيعة الى صاحبه  
عبيرها ذاك الذي كان يصدر عن خيمتها فيملأ الجو عرفاً  
وطيباً . انظر الى هذه الاقراص . انها اقراص الجن يا سيدي ،  
وأي جن ما شئت من الوان الجن . جن اجنبي وجن



مصري ، جنب رقيق و جنب غليظ ، جنب خشن و جنب ناعم ،  
جنب جاف كأنه الحجر ، و جنب رطب يسيل لعابه و يتحلب  
منه المشّ و تجري فيه فنون من دقيق الحيوان .

وانظر الى هذه الآنية التي تدنو و تنأى و تقرب و تبعد  
و تصعد في الجو و تهوي نحو الارض داعية الى نفسها مدلة بما  
فيها ، أتعرفها ؟ أتعرف ما تحتوي من الالوان . انها القشدة ،  
القشدة التي يبيع فيها بعض العمد نفوسهم بيعاً . انظر يا سيدي  
الى ما سميت وما لم اسمّ ، و الى ما و صفت وما لم أصف .  
انظر الى الاشياء و الاحياء كيف تضطرب و تدور و تأتي هذه  
الحركات العجيبة الغريبة على صوت هذا المعنى البارع الرقيق  
الرشيق ، الحفيف الظريف ، الوسيم القسيم ، الذي يتغنى بالتقاليد ،  
وجمال التقاليد ، و قدس التقاليد ، و ما يجب للتقاليد من حماية ،  
و ما يجب للاخلاق من رعاية ، و ما يجب للضامير من صفاء ،  
و ما يجب للايدي من نقاء ، و ما يجب للمناصب من كرامة ،  
و ما يجب لاصحاب المناصب من ارتفاع عن الصغار ، و تنزه  
عن الدنيا .

انظر يا سيدي الى يمين فيخذ بحظك من ، الحزن و انظر  
الى شمال فيخذ بحظك من السرور ، فلا خير في الحياة اذا  
لم تكن حزناً و سروراً ، ولذة و ألماً ، و جدّاً و لهوّاً . انظر عن  
يمين و انظر عن شمال ، ثم انظر امامك الى هذا البلد الحزين



التعس ، الذي يعدو على حقوقه اصحاب الجد ، ويأبى بمنافعه  
اصحاب اللهو ، وهو يحتمل عدوان أولئك ويحتمل لهو هؤلاء  
محزوناً حيناً ، مسروراً حيناً آخر ، ساخراً من أولئك  
وهؤلاء دائماً ، لانه قد بلا من الدهر خيره وشره ،  
وذاق من الايام حلوها ومرها ، ووثق بان عدل الله قريب ،  
وبان الحق منتصر مهما يتصل سلطان الباطل ، وبان صرح  
الجور مندك ، مهما يشيّد باضخم الاحجار واصاب الصخور .  
ولكن دعنا من فلسفة الاخلاق فما تتسع الحياة لفلسفة الاخلاق  
وحدثني عن هذه الاشياء التي تضطرب وهذه الاحياء التي  
تتطاير وتتصايح ، ما خطبها ؟ من أين اقبلت ؟ والى اين  
تريد أو اين ومتى تحب أن تستقر ؟ زعمت وزارة المعارف  
انها اقبلت من مدارس وزارة المعارف المنبئة في ارجاء مصر  
قاصدة الى بيت وزير من وزراء المعارف ، في حي من  
احياء القاهرة ، أو في قرية من قرى الريف . لا تهز رأسك ،  
ولا ترفع كتفك فما في هذا الحديث من شك ، وما في هذا  
الحديث من ريب ، انها تقريران نشر اولهما صباح الاحد ،  
ونشر ثانيهما صباح الثلاثاء ، وزعم ناشرهما انه أخذهما من  
وزارة المعارف ولم تنكر عليه الوزارة ما زعم . ثم لم ينكر  
وزير المعارف ذاك ما نسب اليه ، في أول هذين التقريرين  
وسنرى أينكر ما نسب اليه ، في ثاني هذين التقريرين .



خرجت إذن هذه الاشياء ، وخرجت اذن هذه الاحياء  
 من مدارس الصناعة والزراعة الى بيتي وزير التقاليد . فليت  
 شعري أسارَ اليه منها ما سار ، وطار اليه منها ما طار ،  
 حباً له وهياماً به وشوقاً اليه ، أم سار السائر وطار الطائر  
 استجابة لدعاء وتحقيقاً لرَجاء ، وشفاء لبعض ما في الصدور ...  
 خرجت إذن هذه الاشياء وهذه الاحياء من مدارس الصناعة  
 والزراعة الى بيتي وزير التقاليد فليت شعري أوديت اثنائها  
 كما ينبغي أن تؤدي الاثنان ، أم أديت لها اثنان لا تعدل  
 قيمتها ، ولا تلائم ما حملت الى الوزير من لذة وبهجة  
 وراحة ومتاع ... اما وزارة المعارف فتنبئنا بان هذه الاشياء  
 قد بيعت من الوزير بثمان نجس وبأن للدولة عند الوزير مئة  
 وبعض المئة من الجنيهاً . وليت شعري ما حكم الله في هذه  
 المائة وبعض المائة من الجنيهاً ؟ أتبقى عند وزير التقاليد أم  
 تؤدي الى وزير المعارف ليؤديها الى وزير المال ؟ وليت شعري  
 أنشئت مدارس الزراعة والصناعة لتصلح بيت الوزير ، وما  
 تملك من أدوات الزرع ، ولتذيق الوزير والذين يدعوه الى  
 مائدته ما في الحياة من لذة وبهجة ونعيم . أم انشئت مدارس  
 الصناعة والزراعة لتعلم المصريين كيف يصنعون ويزرعون ،  
 وكيف يتخذون الصناعة والزراعة وسيلة الى ترقية الحضارة  
 واكتساب العيش ، والتأمل الحياة . وليت شعري ماذا يقول



لضباطهم هؤلاء الناس الذين طعموا على مائدة الوزير من ألوان  
الجن والقشطة وشربوا عند الوزير ألوان الشراب واستمتعوا  
على مائدة الوزير بلحم تلك الطير التي أهديت إليه اهداء او  
أخذت له أخذاً ، والتي أدى اثنائها السورية الى الدولة هذا  
البيطار أو هؤلاء التلاميذ .

وليت شعري ماذا يقول الوزير لضميره وماذا يقول  
لوزير ضمير الوزير ، وليت شعري أيسمع الوزير اذا جلس  
في مكتبه وحيداً أو مع أصحابه ، أحاديث هذا المتاع  
الذي انبث في الحجرة ، وهذه الاطارات التي علقت على  
الجدران ، أي فهم هذه الاحاديث ؟ أثير في نفسه ألماً ؟ اتبعث  
في قلبه ندماً ؟ أتسبغ على وجهه هذه الحمرة التي تسبغها  
المخجلات على وجوه الذين ينجلون ؟ وليت شعري ما حكم  
وزير المعارف القائم في هذا العيث بالمدارس والاستغلال  
للتعليم والافساد لعقول الطلاب ، وعقول المعلمين ، واخلق  
الموظفين . وليت شعري ما حكم وزير المال في هذا العيث  
الخزي بأموال الدولة ؟ وليت شعري ما حكم رئيس الوزراء  
ومجلس الوزراء في هذا الخزي المنكر ، وهذا الفساد العظيم ؟  
أليس من سبيل الى ان يُسأل المسيء عما اساء ، ويؤخذ  
المذنب بما اذنب ، ويعاقب الآثم على ما قدمت يداه ؟  
أفضي على هذا البلد ان تقترف فيه الآثام سرراً وجهرًا وتجترح



فيه السيئات خفية وعلناً ، وتهدر فيه القوانين ، وتنتهك فيه الحرمات ، ثم لا يسأل آثم عن إثم ، ولا يؤخذ مجرم مجرماً ، وإنما يستمتع المسيء بمثل ما يستمتع به البريء .

نعم ليت شعري ، وليت شعري ، وأنا أستطيع ، وأنت تستطيع ان تردد معي هذا السؤال الف مرة ومرة ، دون ان تنتهي الى جواب ، فمنذ عام ونصف عام تظهر الفضيحة إثر الفضيحة وتعلن الخزية إثر الخزية ، والمصريون ينظرون ويسمعون ويألمون ، ويشكون ثم تنتهي أمورهم عند هذا . كلا . كلا . لن تستقيم للمصريين أخلاق إلا اذا عوقب المسيء على إساءته ، ولن تصلح للمصريين حياة الا اذا سئل المجرم عن جرمته ، ولن تكون لمصر سمعة تلائم ما تؤمن به لنفسها من كرامة ، إلا اذا عرف الاجانب ، واستيقنوا أن مدارس الصناعة والزراعة لم تنشأ لاصلاح بيوت الوزراء وارضاء حاجاتهم الى الدجاج ، والارانب وألوان الفاخرة والحلوى .

نعم لن تستقيم لمصر أمورها حتى تنهى التقاليد وزير التقاليد وامثاله عن استغلال المدارس لما لم تنشأ له المدارس ، واستغلال السلطان لما لم ينشأ له السلطان .

اما بعد فقد كنت أظن يا سيدي انك ستحزن ان نظرت الى بين فرأيت الطغاة وقد انهزموا بعد انتصار ، وذلوا بعد



عز ، وانك ستضحك ان نظرت الى شمال فرأيت التقاليد  
تلعب حول وزير التقاليد ، ولكني رأيته محزوناً في الحالين  
يضحك وجهك وتبكي نفسك فلا تلمني في هذا ، ولكن لم  
حياتنا المصرية واذكر ان ابا الطيب قد تنبأ لك ولي ولا مثالنا  
منذ الف سنة بهذه الحال :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

ابريل ١٩٣٥



## ادب الصَّيْف

أقبل الصيف ، وأقبل معه قيظ شديد مرهق لا يصهر  
الابدان وحدها ، ولكنه يصهر معها العقول ، ولعله يصهر  
مع العقول والابدان بعض الاخلاق أيضاً ، فيدفع قوماً  
من الامر الى ما لم يكونوا ليُدفعوا اليه ، لو لم يشتد القيظ  
على أبدانهم ، وعقولهم ، وأخلاقهم ، فيمنعهم من الاناة  
والمهل ، ومن التفكير والتروية ، ومن ضبط النفس وتسليط  
العقل على الارادة حين يعملون او يقولون . ولكنني لم اكتب  
لأحصي آثار القيظ الشديد المرهق في أبدان الناس وعقولهم ،  
وأخلاقهم ، ولما أريد ان اسجل ان هذا القيظ الشديد المرهق  
لا تستقيم معه الاحاديث عن الشعر القديم عامة وعن شعر  
الجاهليين خاصة . فالاحاديث عن هذا الشعر تحتاج فيما يظهر  
الى شيء من الراحة والهدوء ، والقدرة على التفكير المطمئن  
وهذا الفراغ الفني الذي يتيح للذوق ان يستأنس ويتأمل ويسيع



الاشياء في غير جهد ولا مشقة ، ولا تعرض لهذا العناء السريع الذي نتعرض له حين يسלט الجو علينا هذا الحر الشديد . واكبر الظن ان صاحبي الذي تعود ان يسرع الي اذا كان ميعادنا من كل اسبوع لناخذ فيما تعودنا ان نأخذ فيه ، من أحاديث الشعر القديم ، قد أحس من الصيف مثل ما أحس ، وانكر من نفسه مثل ما أنكر ، واستيقن ان طاقته لا تستطيع ان تثبت لدرس الشعراء القدماء وما يمرضون له من صور مهما تكن جميلة رائعة موفورة الحظ من الروعة والجمال فانها أبية عصية لا تسمح بمكنونها ولا تتكشف عن مخزونها الا بعد شيء من التردد والتنع والاباء يكلف الذين يطلبون اليها جمالها وروعتها ، شيئاً من جهد ، وفضلاً من عناء .

يظهر ان صاحبي قد أحس هذا كله فأخلف الموعد ، لأول مرة ، ثم أخلفه للمرة الثانية ، ثم سألت عنه والتمسته في مظانته ، فلم اهتمد اليه ، ولم أدل عليه ، وخيل الي انه قد فر من هذا الجو فراواً ، وأي شيء أيسر عليه من الفرار وهو لا يحتاج الى مثل ما نحتاج اليه نحن من التهيؤ الطويل الثقيل للسفار . فلا بد لي اذن من ان استئس من التحدث اليه في الشعر القديم حتى تنجلي غمرة الصيف ، واذا كان هو على لينه ورقته واعتصامه بهذه الرقة وذلك اللين ، من



اعراض الحر والبرد قد فرّ من أحاديث الشعر القديم ، فما  
أجدر غيره من الناس ان يضيعوا بهذه الاحاديث ، وما  
اجدر الكتاب اذا لم يكن لهم بد من الكتابة ان يرفقوا  
بقراءهم اذا كتبوا والا يتحدثوا اليهم ، من الموضوعات فيما  
يكلفهم جهداً وشططاً . والكاتب مدين لقارئه بهذا الرفق ،  
أو قل ان الكاتب مدين لنفسه بان يرفق بقرائه ان كان  
حريصاً حقاً على ان يقرأوه ، راغباً حقاً في ان يتحدث الى  
عقولهم اليتظة المفكرة ، لا في ان يكون سبيلهم الى الضجر  
والسأم ، او الى الفتور والنوم .

ويخيل الي ان الكتاب الغربيين يقدرّون هذا الطور من  
حياتهم وحياة قرائهم قدره ، فهم يرفقون بانفسهم وبالقراء ،  
اذا أقبل الصيف ، وهم يتخففون من الموضوعات الضخمة  
الفخمة والمسائل المشككة المعضلة التي يعرضون لها في غير الصيف  
من فصول السنة وهم لا يعرضون من الاحاديث إلا للسهل  
اليسير ، الذي لا يكلف المتحدث ولا السامع مشقة ولا  
يكلفه جهد التروية والتفكير . وهم ينتهون بفضل هذا الرفق  
بانفسهم وبالقراء الى انشاء أدب خاص يتناول موضوعات قلما  
تتناول في غير فصل الصيف ويتناولها في صور قريبة مواتية  
قلما تظهر في الشتاء او الربيع . وهذا الادب الخاص الذي  
تمتلى به الصحف الغربية في هذا الفصل من فصول السنة



يمكن أن نسميه أدب الصيف أو أدب الاجازة ، أو ادب  
الراحة والاستجمام .

وموضوعات هذا الادب الصيفي تفرض نفسها على الكتاب  
والقراء فرضاً ، كما ان موضوعات الادب كلها تفرض نفسها  
فرضاً على الكتاب والقراء الذين يستحقون ان يسموا كتاباً  
وقراء ، فاذا اقبل الصيف تفرق الطلاب والتلاميذ وفرغوا  
لحياة الاسرة وقتاً غير قصير فتغيرت حياتهم تغيراً ظاهراً ،  
وكانت خليقة ان تثير عناية الكاتب وعناية القارئ معاً ،  
وأن تدعوها الى التفكير المشترك فيما يلقي الطلاب والتلاميذ  
من الجهد العنيف المحتوم ، أثناء السنة الدراسية وفيما ينتهي  
اليه الطلاب والتلاميذ من نتائج هذا الجهد التي يتكشف عنها  
الامتحان ، وفي الملاءمة بين هذا الجهد المتصل وبين طاقة  
الطلاب والتلاميذ وانتفاعهم وتكوّن عقولهم ، وأخلاقهم  
وأجسامهم ، وفي حياة الدرس ، وحياة الفراغ وما يكون  
للأسرة من تأثير في هذه الحياة أو تلك ومن تأثر بهذه  
الحياة أو تلك . وأظن ان موضوعاً من هذه الموضوعات  
خليق أن يلهم الكاتب المجيد فصولاً خصبة قيمة تثير في نفس  
القارئ كثيراً من العواطف وتدفعه الى كثير من التفكير .  
على ان الطلاب والتلاميذ اذا فرغهم الصيف من  
مدارسهم وردهم الى الاء والامهات لم يستقروا في دورهم



ومنازلهم اكثر الوقت ، وانما يزعمهم الصيف عنها ازعاجاً  
او قل انهم ينتقلون عنها مختارين قد تهيأوا لهذا الانتقال  
وتهيأت له اسرهم ايضاً . واكبر الظن ان هذا الانتقال قد  
كان عزاءهم وعزاء آبائهم وأمهاتهم ، عما يجدون من جهد ،  
وما يلقون من عناء ، في الدرس المرهق والعمل المتصل .  
واكبر الظن انهم كانوا يتمثلون هذا الانتقال ، وما سيعقبه  
من راحة لاجسامهم وعقولهم ومن تغيير لما يرون ويسمعون  
ويحسون . كانوا يتمثلونه أول العام آسفين عليه بعد ان قضوا  
حاجتهم منه ، ثم يتمثلونه اثناء العام مشوقين اليه ، بعد ان  
بعد عهدهم به ، ثم يتمثلونه آخر العام راغبين فيه أشد الرغبة  
مندفعين اليه اشد الاندفاع يعدّون الايام والليالي ، التي تفصل  
بينهم وبينه ويستعينون بذلك على المسائل المشككة والكتب  
الطوال الثقال وعلى احوال الامتحان التحريري واطوار  
الامتحان الشفهي ، وعلى هذه الساعات المخوفة التي تعلق فيها  
نتائج الامتحان على جدران المدارس والجامعات . واذا  
تفرق الطلاب والتلاميذ مع اسرهم فهم يهجرون دورهم  
ومنازلهم ومدنهم وقراهم الى الجبال أو الى البحار ، او الى  
البحيرات او الى السهول الجميلة النضرة والغابات الكثيفة  
الملتفة . وكل هذا خليق ان يوصف ، وان يكون موضوعاً  
للحديث الطريف الممتع . والغريب ان الزمن يستدير في كل



عام كهيئته في الاعوام التي مضت ، وان الصيف يلم ويمضي ،  
وان الطلاب والمدرسين يتفرقون عن مدارسهم ويعودون اليها ،  
ويلبسون بابسهم ويرحلون عنها ، ويقصدون الى الجبال  
والبحار والى الأودية والسهول ، ثم يردون الى مدارسهم  
وجامعاتهم ، كما يرد الالباء والامهات الى مناصبهم وأعمالهم ،  
وان الكتاب يتحدثون اليهم في كل صيف عن هذه الموضوعات  
دون ان يستنفدوا ما يقال عنها او يكتب فيها ، ودون ان  
يكرروا ما يقولون أو يعيدوا ما يكتبون كأن كل صيف  
اذا اقبل يُقبل بشيء جديد ولا يعود على الناس بمثل ما كان  
قد حمل اليهم من قبل . هذا غريب في ظاهره ، ولكن  
قليلاً من التفكير الذي يحتمله الصيف ولا يمنع منه اشتداد  
القيظ ، يدل على أن هذا لا غرابة فيه . فكل صيف يقبل  
ككل يوم يُقبل انما يحمل الى الناس ذكريات لما مضى  
وآثاراً لما انقضى ، فيها الرضى وفيها السخط ، فيها اللذة  
وفيها الألم ، ويحمل اليهم كذلك آمالاً فيما يقبل من الدهر  
كما يحمل اليهم خوفاً واشفاقاً ، بل ان كل صيف يقبل  
ككل يوم يقبل لا يحمل الجديد للناس وحدهم ، ولما يحمل  
الجديد للأشياء أيضاً ، فهل أنت واثق بان الغابة التي تراها  
في هذا الصيف بعد ان رأيتها في الصيف الماضي قد احتفظت  
لك بكل ما أرتك في العام الماضي من شجر وزهر ومن



اوراق وغصون ، ومن طير وحيوان ؟ هل أنت واثق بانها لم تغير هذا كله ، او بعضه ، او بان الاحداث لم تغير هذا كله او بعضه ، ولم تذهب منه بما رأيت ، ولم تحدث لك منه ما لم تر ؟ وهل انت واثق بانك حين تعود الى هذا المصطاف الذي تعودت ان تنفق فيه الصيف ستلقى الوجوه التي لقيتها ، في العام الماضي ، وتسمع الاحاديث التي سمعتها في العام الماضي ، وتخوض مع الناس فيما كنت تخوض معهم فيه اثناء العام الماضي ؟ كلا ، بل انت واثق بانك ستلتبس كثيراً من الاشياء التي أعجبتك وراقتك حين ألمت بهذا المكان أو ذاك ، فلا تجدها . وستحزن عليها شيئاً من حزن ، وستثير غيبتها في نفسك قليلاً او كثيراً من الأسى ، وستجد في هذا الاسى وذلك الحزن شيئاً من هذه اللذة الشاحبة التي نسميها الشوق والحنين . فأني غرابة في ان يجد الكتاب والشعراء جديداً يتحدثون به الى الناس كلما اقبل الصيف ؟

واني لأعرف فصلاً من فصول الادب الصيفي الفرنسي رأيته يتجدد في كل عام اذا اقبل الصيف ، وجعلت أتتبع بعض ما استطيع ان أتبعه منه كلما سنحت لي الفرصة فما أحسست اني خفت به ، او زهدت فيه ، أو ادركني سأم من قراءته ، ولا أحسست اني أقرأ شيئاً معاداً وحديثاً مكرراً . وما أشك في ان هذا الفصل من الادب الفرنسي الصيفي



قديم ، قد بدأ الفرنسيون في كتابته منذ زمن بعيد ، وما  
اشك في انه سيظل جديداً ابدآ ، سيكتب الفرنسيون فيه  
كل عام لا يسأمهم ولا يسأمونه ، وهو وصف باريس اذا  
أقبل الصيف فخلت من اهلها الباريسيين واستعدت للقاء  
زوارها الغرباء .

كثير جداً ما يقوله الفرنسيون في مدينتهم هذه حين  
ترسل اهلها الى الجبل والبحر وتستقبل الغرباء من اهل الاقاليم ،  
أو من اهل البلاد الاخرى القريبة والبعيدة . فهم يصفون  
شكل المدينة الذي يتغير ويختلف بتغير المضطربين فيها  
والمندفعين في شوارعها والمزدحمين على قهواتها وأنديتها ، وهم  
يصفون لغة باريس ، أو لغة اماكن معينة في باريس ، فهي  
فرنسية باريسية اثناء العام ، ولكنها فرنسية اقليمية او فرنسية  
اجنبية اثناء الصيف . وهم يصفون هذه الملاهي والملاعب التي  
تغلق ابوابها وترسل اصحابها الى مدن الصيف ، وهذه الملاهي  
والملاعب التي لا تغلق ابوابها وانما ترسل رجالها الى مدن  
الصيف ، وتستخدم ما يسمونه البطانة لتلبية الغرباء وتسليتهم .  
ثم هم يصفون هؤلاء البائسين من الباريسيين الذين تضطربهم  
ظروف الحياة الى ان يقيموا في باريس حين يرحل عنها  
الناس ، فان كانوا من الفقراء أو من الطبقات الوسطى  
احتملوا مقامهم في مدينة النور المهجورة في شجاعة وكبرياء ،



وصبر على المكروه . وإن كانوا من الاغنياء والمترفين احتملوا ذلك في حياء شديد وجدوا في التنكر والاستخفاء . فان لقيهم لاقٍ او عثر بهم عاثر اجتهدوا في التماس المعاذير والتعللات يعللون بها ما لا يقبل التعليل من اقامتهم في هذا البلد ، الذي لا مقام فيه لرجل يعرف الذوق والالوضاع الاجتماعية ، ويعرف ما يليق وما لا يليق ، وما يحسن وما لا يحسن .

وللكتاب الفرنسيين فنون في تصوير هذا الفصل من الأدب الصيفي تلقاها في صحفهم على اختلافها ، تلقاها في صحفهم الهائلة كما تلقاها في صحفهم الجادة . ثم لهم فصول يصفون فيها السواحل ، وحياة المستحمين ، وأخرى يصفون فيها مدن الماء وأخرى يصفون فيها مصايف التلاميذ الفقراء ، ولهم بعد هذا فصول يصفون فيها هذه الالوان من اللهو الذي يبتكره المصطافون ابتكاراً ليستعينوا به على الوقت والفراغ وليستعين به بعضهم على بعض .

وهناك طائفة من الكتاب اذا أقبل الصيف ولم يجدوا ما يكتبون عن بلادهم كتبوا عن البلاد الأخرى يسعون الى ذلك ، ويبلغونه بالسفر والقراءة . فهذا الناقد من نقاد التمثيل ينظر فيرى الملاعب قد اقفلت أو اعرضت عن التجديد اثناء الصيف فينتهز الفرصة ويتحدث الى قرائه عن الادب التمثيلي الاجنبي في فصول ظريفة من اجل ما يقرأه الناس . فاذا لاحظت أن المثقفين من الاوربيين ، وما اكثرهم ، يشغلون



بالعمل في أكثر السنة ولا يجدون من الوقت ما يحتاجون إليه  
ليقرأوا كل ما يحبون ان يقرأوا من آثار الكتاب والشعراء  
والعلماء ، التي تظهر في فصل الانتاج العقلي ، وأنهم يجمعون  
هذه الآثار ويضمون بعضها الى بعض ، وينتظرون بها فصل  
الاجازات ليعكفوا عليها اذا ظفروا بقسطهم من الراحة ، اقول  
اذا لاحظت هذا عرفت أن القراء من المثقفين الاوروبيين  
يشقون على انفسهم في حقيقة الامر لانهم يقرأون ما ادخروا  
لأنفسهم اثناء العام وهم لذلك في حاجة الى أن يرفق بهم  
الكتاب ، فلا يكلفهم جهد القراءة العنيفة الفنية الدسمة ان  
صح هذا التعبير الذي لا أحبه ولما اضطر اليه .

هذا هو الذي يكون أو هو بعض الذي يكون في اوربا  
اذا اقبل الصيف . فما الذي يكون في مصر حين يقبل هذا  
الفصل من كل عام ؟ أما ان الطلاب والتلاميذ يتفرقون  
ويعودون الى أسرهم ويصطف القادرون منهم على الاصطيف  
فشيء ليس فيه شك ، وأما ان المصريين انفسهم يرحلون  
عن مدينتهم وقراهم ، بل عن قريتهم الكبيرة التي نسميها القاهرة  
ليصطفوا في مصر وفي غير مصر فهذا شيء ليس فيه شك  
ايضاً . بل ليس من شك في ان كثيراً من أهل القاهرة  
يجرون مدينتهم اذا كان الصيف ، وفي ان كثيراً من اهل  
الاقاليم يتخذون هذه المدينة الجميلة الثقيلة مصطافاً لانها اقل



حرّاً من اقصى الصعيد ومن كثير من قرى الريف ، وفي  
ان كثيراً من اهل القاهرة يعجزون عن الرحلة ويضطرون  
الى المقام فيكرهون ذلك ويضيقون به ، ويلتمسون لأنفسهم  
منه المعاذير ، ولكن الغريب ان شيئاً من هذا كله لا يلهم  
كتابنا وأدباءنا حديثاً من احاديث الصيف هذه التي تمتلئ بها  
الصحف الاوروبية في هذا الفصل من كل عام .

شيئان اثنان يعنى بهما الكتاب المصريون اذا كان هذا  
الفصل ، أحدهما موسم الامتحانات وما يثير من ضجيج وعجيج  
ومن شكاة واستعطاف ومن نقد للاستئلة ولوم للسائلين ، والثاني  
مصايف البحر وما تثير من هذا السخط الذي تمتلئ به نفوس  
جماعة من المتخرجين ، يغضبون للحياء والاخلاق ، ويكتبون  
الفصول الطوال يستعدون بها الحكومة على حماية الحياء والاخلاق .  
وما اظن ان كتابنا يعنون بغير هذين الامرين من امور  
الصيف خاصة . هم اذن لا يرفقون بأنفسهم ، ولا يرفقون  
بقرائهم ، بل يكتبون في الصيف كما كانوا يكتبون في الشتاء ،  
فان اخذوا بحظ من هذا الرفق امتنعوا عن الكتابة امتناعاً ،  
وصدوا عنها صدوداً ، واراخوا انفسهم من الكد واستمتعوا  
بفترة قصيرة من الهدوء الذي هم اهل له . ولكن الصحف لا  
بد من ان تظهر ولا بد من ان تظهر ممتلئة الانهار . وهنا  
يلقى اصحاب الصحف من صناعتهم الجهد كل الجهد ، ويلقى



القراء من صحفهم العناء كل العناء . اولئك يريدون ان يملأوا  
الصحف فلا يجدوا ما يملأونها به ، وهؤلاء يريدون ان يقرأوا  
فلا يجدوا ما يقرأون . وكذلك يصبح الصيف فصل الكساد  
الادبي العام . ومع ذلك فما ابعد الصيف عن أن يكون  
فصلاً من فصول الكساد لو عرفنا كيف نستقبله ونحتمله  
ونعاشره ونفارقه كما يفعل غيرنا من الناس . على اني مجتهد  
منذ الآن في ان اغير للقراء من احاديث الصيف لعل ان اعينهم  
واعين نفسي على احتماله حتى تنجلي عنا غمرة . ولهم عليّ الا  
احدثهم في موضوع واحد مرتين حتى تنتضي هذه الاشهر  
الطوال .

يونيو ١٩٣٥



## حوار في الادب

لم يرفع لي رأسه حين دخلت عليه ، ولم يردد علي التحية حين اهديتها اليه ، ولما ظل مطرقاً ممعناً في اطراقه ، صامتاً مغرقاً في صمته ، تمضي عينه رفيقة في كتاب قد وضعه امامه على المائدة ، وتعبث يده عبثاً منتظماً بقلم قد اخذت تضرب به صحفاً منتشرة على المائدة عن يمينه كأنما يداعب به هذه الصحف .

وليس من شك في انه كان يقرأ ما يقرأه في عناية شديدة وقد اخذ قلبه ونثر هذه الصحف ليسجل ما يخطر له من الملاحظات ، وكنت خليقاً ان اضيق بهذا الاعراض الذي لقيني به وانكر هذا الانصراف الذي الح فيه لولا ان الكلفة بينه وبين مرفوعة ، والألفة بينه وبين متصلة . ولولا اني اعرف منه هذا النبوء عما تعود الناس فيما بينهم من صلات قد يكون حظها من التكلف والنفاق ، اعظم من



حظها من السذاجة واليسر ومن هذه الصراحة التي لا تدع بين  
النفوس حجباً ولا استاراً .

وقد كان من الممكن ان ادخل عليه فلا أُلقي اليه تحية  
ولا انتظر منه جواباً ، وإنما اعمد الى هذا المكان الذي الفته  
من غرفة عمله فاستقرّ فيه هادئاً منتظراً ان يفرغ لي ، او  
استقر فيه نشيطاً لبعض ما أنشط له من العمل حين ادخل  
هذه الغرفة المغربية بالقراءة والجد لكثرة ما اشتملت عليه من  
الكتب المتنوعة في الفن والادب والعلم . ولكنني في ذلك الصباح  
دخلت عليه كما ادخل على غيره من الناس وأهديت اليه التحية  
كما اهديها الى غيره من الناس . فلما آنست منه هذا الاعراض  
ذكرت اني أزوره هو لا غيره من ذوي المودة والمعرفة .  
فعدت الى ما ألفت من الامر عند لقائه ، وأقبلت على ما  
اردت ان أقبل عليه من عمل ، وتركت له كتابه وقلمه يقرأ في  
احدهما بعناية ، ويعبث باحدهما الاخر في نظام واطراد .

ولم تمض لحظات قصار حتى نسيت مكاني منه ومكانه مني ،  
وإذا انا أثوب إلى نفسي فجأة كأنما آتي من بعيد يدعوني إلى  
نفسي وإلى ما حولي هذا الصوت او هذه الاصوات التي أسمعا  
مختلطة متباينة في وقت واحد . فصوت انسان يرتفع في الغرفة  
فيملؤها بهذه الالفاظ : اما الآن فقد فرغت لك فافرغ لي ،  
وصوت كتاب متوسط الضخامة يلقي على المائدة في عنف ،



وصوت قلم نحيل ضئيل يلقي على المائدة إلقاء بين العنف والرفق فيضطرب عليها اضطراباً يسيراً .

قلت لصاحبي : قد فرغت لي حين أردت أو حين أتيت لك الفراغ ، فأما أنا فلا أريد أن أفزع لك أو قل لم يتح لي بعد أن أفزع لك . فلم يرد عليّ جواباً ولكنه مشى رقيقاً إلى صاحبي ونظر في الكتاب الذي كان يقرأ لي فيه ، ثم انتزع من يد صاحبي انتزاعاً وقال : هذا كتاب قرأته منذ اعوام وما ينبغي أن تقرأه وحدك فسقرأه معاً وسيكثر الحوار بيننا حول ما جاء فيه من الخواطر والآراء وسنبداً هذه القراءة ان شئت بعد ساعة اذا رددت عليك تحيتك باحسن منها ، وإذا شربنا من القهوة قدحاً أو قدحين وأحرقنا سيجارة أو سيجارتين ، وأدركنا الحديث بيننا قليلاً اثناء ذلك حول صاحبكم هذا الذي أقمتم له الدنيا وأقعدتموها منذ عام ، والذي تقيمون له الدنيا وتعدونها منذ اول هذا القرن .

قلت حول أبي العلاء .. اليك عني فقد شبع من حديث أبي العلاء حتى ادركتني التخمة او كادت تدركني فدعني استرح منه ودعني أرح منه الناس حيناً ، فقد صدقت ، لقد اقمنا الدنيا وأقعدناها بحديث أبي العلاء ، ولقد أقمنا انفسنا واقعدناها بحديث أبي العلاء حتى أخذنا الدوار وآن لرؤوسنا



ان تستقر ، ولأعصابنا ان تهدأ ، ولالستنا وعقولنا ان تأخذ في  
 حديث آخر . فاذا أخذنا وأخذ الناس قسطاً من راحة  
 وحظاً من دعة عدنا الى حديث ابي العلاء فمنا به وقعدنا  
 وأقمنا الناس به واقعدناهم ، فان قصة ابي العلاء لم تنته بعد .  
 قال صاحبي وهو يضحك : لا تخدع نفسك ولا تخدعني فما  
 سميت حديث ابي العلاء ولا خقت بهذا الدوار الذي اضطرك  
 اليه هذا الحديث ، وما أعرف انك تحب شيئاً كما تحب هذا  
 الدوار الذي يفنيك في صاحبك ويشغلك عن غيره من الناس  
 والاحداث والخطوب . على أني لن احاورك فيما شغلتم به  
 أنفسكم وشغلتم به الناس من آراء ابي العلاء في الفلسفة والسياسة  
 والاخلاق والدين وشؤون الاجتماع فكل هذه اشياء قد ضقتنا  
 بها حقاً ، وآن لنا أن نستريح منها وقتاً ، انما أريد ان  
 احاورك في شعر أبي العلاء فقلما تحدثم في هذا الموضوع وقلما  
 حاولتم ان تتعمقوه . وقد جعل بعضكم يزعم للناس انه شعر ،  
 وجعل بعضكم الآخر يزعم للناس ألا حظ له من شعر أو ان  
 حظه من الشعر ضئيل . قلت وتريد أنت ان تأتي بالقول  
 الفصل في هذه القضية ، وان تمحو الحصومة فيها محواً وتلغيها  
 الغاء وتردّ الناس الى شيء من الوفاق لا يختلفون بعده ابداً...  
 قال لا تعبت بي ولا تسرف في اساءة الظن برأي فاني لم  
 أصل من الجهل بامور الشعر الى هذه المنزلة ، ومتى رأيت



الناس يصلون إلى الاتفاق في أمر شاعر من الشعراء فيقضوا له  
جميعاً بالتفوق أو بالتوسط أو بتواضع المنزلة ؟ قلت فسننظر  
مختلفين في شعر. أبي العلاء كما نحن مختلفون في شعر غيره من  
الشعراء . قال فان الخلاف في شأن أبي العلاء يأخذ شكلاً  
خاصاً لم يأخذه الخلاف في شعر المتنبي ، وابي تمام او مسلم  
لان هؤلاء وامثالهم قد فرغوا للشعر وقصروا عليه حياتهم  
ووقفوا عليه جهودهم وسلكوا اليه الطرق التي تعود الشعراء  
ان يسلكوها إلى الاجادة في الفن . فاما ابو العلاء فأمره لا  
يخلو من غرابة ، فهو من اكثر الشعراء شعراً ولعله إن وصلت  
الينا آثاره كلها ان يكون اكثرهم شعراً . ثم هو لم يسلك  
في الشعر طريقة واحدة ولم يقصد به الى غاية واحدة من  
غايات الفن ، وانما قصد إلى غايات مختلفة متنوعة كما سلك طرقاً  
متميزة متباينة . فهو شاعر كغيره من الشعراء يصور عواطف  
نفسه واهواءها ويصور عواطف الناس واهواءهم ويصور مظاهر  
الطبيعة من حوله كما استطاع ان يصورها ، يشارك في المدح  
والرثاء ، كما يشارك في الفخر والوصف وكما يشارك في الهجاء  
الى حد قريب . ولكنه يذهب مذاهب اخرى فيقول في الفلسفة  
وفي الفلسفة التي لم يتعود الشعراء أن يطرقوها ولا ان يخضعوها  
للنظم ، ويقول في السياسة على غير النحو الذي ألفه الشعراء  
السياسيون ، ويقول في النقد الاجتماعي والديني ويذهب مذهب



الالغاز كما يذهب مذهب الرمز ، ثم هو يسلك في هذه  
 الاغراض كلها طرقاً منها المستقيم البين ومنها الملتوي الغامض ،  
 يسلك طريق الشعراء الذين عاصروه او سبقوه فيسهل في  
 الفاظه حيناً ويشقّ فيها على نفسه وعلى الناس حيناً آخر ،  
 ويلزم عمود الشعر مرة كما لزمه القدماء فيجري على طبعه وعلى  
 طبع اللغة ، وينحرف عنه مرة أخرى فيمضي على طريقة ابي  
 تمام واصحابه صانعاً حيناً ومتصنعاً حيناً ، ويمضي على طريقة  
 المتنبي فيأخذ في هذا التكلف الذي يلجأ اليه الشعراء حين  
 توشك شجرة الشعر ان تجفّ ، وحين توشك زهرات الشعر ان  
 يدركها الذبول ، ثم ينحرف عن هذا كله مرة واحدة ويسلك  
 في اللزوميات وغير اللزوميات طرقاً لم يسلكها أحد قبله  
 فيتجافى بالفاظه ومعانيه عن المألوف ، ويتجافى بالقافية خاصة  
 عن المألوف ، فيكلف نفسه ويكلف الناس من امره شططاً ،  
 ويخضع المعاني للقوافي ويجعل نفسه وخواطره وعواطفه عبيداً  
 لهذه القوافي . فانت ترى ان امر الشعر عند ابي العلاء ليس  
 كأمر الشعر عند غيره من الشعراء ، بل هو اشدّ التواء واكثر  
 تعقيداً ، ولهذا اختلف في حظه من الشعر وفي تقدير ما ترك  
 من الكلام المنظوم القدماء والمحدثون جميعاً ، وظهر هذا الخلاف  
 في عصره وفي آثار تلاميذه الذين سمعوا منه على كل حال .  
 قلت وماذا تريد ان اصنع ؟ اختلف الناس في شعر ابي العلاء



قديماً وحديثاً وسيظلون مختلفين في شعره ، فدعهم يختلفوا فلو  
 شاء ربك لاتفقوا ولكنه لم يشأ ، وهم مختلفون في شعر ابي  
 العلاء كما هم مختلفون في الشعر كله وكما هم مختلفون في كل شيء .  
 قال فاني كنت مشغولاً حين دخلت عليه بقصيدة من  
 قصائده تلك التي قالها في بغداد . قرأتها مرة ومرة وجعلت  
 أنظر في أبياتها بيتاً بيتاً ثم أنظر فيها كلها جملة ، ثم أنظر  
 فيما قيل حول أبياتها من الشرح والتفسير ، ثم أسأل نفسي  
 أكان أبو العلاء شاعراً أم لم يكن ؟ أقرأ شعراً جيداً أم  
 أقرأ شعراً متوسطاً أم أقرأ شعراً رديئاً ؟ والغريب أنني لم  
 أكن أظفر بجواب مقنع عن سؤال واحد من هذه الأسئلة ،  
 او قل إنني كنت أظفر باجوبة مختلفة لكل هذه الأسئلة ، فقد  
 كنت أرى ان أبا العلاء شاعر لأنني كنت اهتز لبعض أبياته .  
 وكنت أرى انه ليس شاعراً لأنني كنت أزور عن بعض  
 أبياته . وكنت أرى اني أقرأ شعراً جيداً وشعراً متوسطاً  
 وشعراً رديئاً ، ولولا ان هذا كله قد دفعني إلى كثير من  
 الحيرة والاضطراب لمضيت في قراءتي وحلّيت بينك وبين  
 كتابك هذا الذي كنت مقبلاً عليه . قلت فاول ما ينبغي  
 ان نسجله هو ان هذه القصيدة لم تملك عليك امرك ولم  
 تستأثر بقلبك ولم تخرجك عن طورك ، وانا اتاحت لك السؤال  
 والجواب والتفكير والتقدير ، فهي إذن ليست قصيدة رائعة



ولو قد كانت كذلك لما اضطرت الى حيرة ولا الى اضطراب، ولكن ارجو الا تكون من هؤلاء الذين يقضون على الشاعر بيت من ابياته او قصيدة من قصائده . قال لست من هؤلاء، ولست ارى ان هذه الحيرة التي دفعت اليها تمنع ان تكون هذه القصيدة رائعة . فقد اكون انا مصدر هذه الحيرة، وقد يكون ترددي في امرها ناشئاً عن قصور مني لا عن قصور من الشاعر او تقصير . وانت تعلم ان من خير ما تنتهي اليه الآثار الفنية في نفوس الذين يشهدونها ان تثير فيها الحيرة والتردد والاضطراب . ولست اخفي عليك اني لا احب الاعجاب اليسير، ولا اغالي بهذه الروعة التي تأخذني من جميع اقطاري وتمنعني من التفكير والتقدير والحكم . قلت وما عسى ان تكون هذه القصيدة التي اذاعت علينا كل هذا الوقت، فقد شربنا القهوة واحرقنا سجائر لا سيجارتين، واجلت قراءتنا لهذا الكتاب البائس الى اجل غير مسمى . قال هي قصيدته التي قالها في بغداد يصور فيها حنينه الى المعرة والتي اولها :

طربن لضوء البارق المتعالي ببغداد وهناً ما لهنّ ومالي  
قلت كفى الله عنك، لقد شككت في غير موضع للشك،  
وادركتك الحيرة في غير مصدر للحيرة، فهذه القصيدة من  
خير ما قال ابو العلاء لانها تصور اكرم ما يجب الرجل او



قل اكرم ما يحب الشاعر ان يصور من ذات نفسه . قال  
هذا شيء احدث نفسي به ولا أكاد احققه لكثرة ما في هذه  
القصيدة من إغراب والتواء يأتيانها من هذا الحديث الطويل  
عن الأبل ومن هذا الحديث الطويل عن الطريق واهوالها ،  
ومن هذه الالوان المتكلفة من الاستعارة والمجاز والطباق .  
قلت فانك لا تعيب على القصيدة إلا انها شعر . قال وما  
ذاك ؟ قلت تعيب على القصيدة ما فيها من حديث طويل  
عن الأبل وعن الطريق واهوالها وما فيها من الوان الفن  
البياني كانك تريد من ابي العلاء ان يتحدث اليك حديثاً  
مباشراً يسيراً قريب المنال بما اراد ان يقول ، ولو انه استمع  
لك واجابك إلى ما تريد لما زاد على ان يقول انه ، ما دام  
على فراق المعرة ، مشوقاً إلى ان يعود اليها لا يعدل بها ولا  
بارض الشام مدينة اخرى وان كانت بغداد ، ولا ارضاً اخرى  
وان كانت العراق . انه لم يرد ان يقول اكثر من هذا . استغفر  
الله ! بل اراد ان يقر الطمأنينة في نفس اخوانه من اهل  
الشام على انه لم يزل عزيزاً كريماً لم يذل نفسه بالسؤال ، ولم  
يبتذل وجهه بتملق الاغنياء وان كان حظه من المال ضئيلاً .  
افتراه ، وقد حدثك هذا الحديث على هذا النحو اليسير ، ارضى  
حاجتك إلى الجمال الفني واثار من قلبك هذه العواطف  
المختلفة ، عواطف الحنان والحنين والشوق والشكوى والارتفاع



عن الصغائر والذنيات ؟ قال كلا ولكنه يجعل بيني وبين هذا  
الجمال وهذه العواطف والخواطر حجباً كثافاً من الفاظه  
واساليبه ، فلو قد قربها إليّ بعض التقريب ... قات فانك تطلب  
الى الشاعر ما لا ينبغي ان يُطلب إلى الشعراء ، فليس من  
الحق على الشاعر ان يقدم اليك فنه الرائع وانت هادىء  
وادع مطمئن ناعم البال ، ولما الحق عليك ان تجد كما جدّ ،  
وتتعب كما تعب ، وتشتى بالتاس الجمال كما شقي هو بعرض  
هذا الجمال . ذلك احرى ان يجعل استمتاعك بالفن فيما  
تدركه عن استحقاق ، وذلك احرى ان يجعلك شريك الشاعر  
في هذا الجهد الحصب الخالد الذي يبذله الشعراء وقراءهم  
وسامعهم ليصلوا إلى هذه الغاية العليا ، وهي تصفية النفس  
وتنقية الذوق وترقية الطبع واصلاح الضمير .

وبعد فما الذي اعياك من هذه القصيدة وصفه للابل ؟ فانه  
لم يصف إلا حنينها الى ما ألفت من ارض الشام وهو قد  
افتنّ في تصوير هذا الحنين فجعل الابل تتناول إلى هذا  
البرق المقبل من الشام وتتناول حتى تكاد ان تقطع اعناقها  
لتصطي بنار هذا البرق ، وجعل هذه الابل ترجع حنينها إلى  
الشام تتلو كتاباً منزلاً فيه حب الوطن وايثاره على كل  
وطن آخر ، وجعل هذه الابل حين ترجع حنينها تنشد قصيدة  
لا يدري أحديّة هي ام قديمة ، لان الحنين الى الوطن



خالد لا يدري أحدٌ أحدثٌ هو أم قديم ، وجعل هذه الابل حين  
ترجع حنينها تغني اصواتا في الثقل الاول من ضروب الغناء ،  
فيها ابطاء واناة وتمهل لأن الحنين إلى الاوطان يلزم النفس  
في جميع خطوات الحياة . وجعل هذه الابل تريد ان تطير  
إلى اوطانها في الشام لولا ان العقال يمنعها من ان تطير ،  
وهو مع ذلك ليس واثقاً بان العقال يمنعها من الطيران ، ولولا  
رفقه بها وحبها لها لأمر صاحبه بان يقيدها بالسيف . وهل تظن  
ان الابل احست شيئاً من ذلك او حاولته ؟ كلا وانما هو  
ابو العلاء قد احس هذا كله واكثر من هذا كله ، وحاول  
هذا كله واكثر من هذا كله ، وادى ما احس وما حاول  
في هذا النحو من الرمز كما اداه الشعراء منذ العصر القديم .  
ثم لم يستطع ان يكتفي بالرمز فجعل الرمز وسيلة إلى خلق  
البيئة وانشاء الجو الشعري كما يقال في هذه الايام ، حتى اذا  
بلغ من ذلك ما اراد صرح عن نفسه في غير لبس ولا التواء  
ولا تردد ولا استحياء ، فقال هذين البيتين اللذين ما اظنك  
تجادل في روعتها التي تأتيتها من صدق العاطفة . قال :

ومن لي باني في جناح غمامة تشبهها في الجنج ام رثال  
تهاداني الارواح حتى تحطني على يد ريح بالفرات شبال  
ولا يرعك قوله « تشبهها في الجنج ام رثال » فانه اسلوب  
مألوف من اساليب القدماء حين كانوا يشبهون السحاب بالنعام



ولكنك تحب التصريح والكلام القريب فهو يتمنى ما كان  
ينكره على الابل من العودة الى ارض الشام تحمله اليها  
نخامة او تنهاده الريح حتى تبلغ به شاطئ الفرات غير  
بعيد من حلب والمعرفة .

واذا كنت تريد تصريحاً اصرح ووضوحاً اوضح  
فاقرأ قوله :

فيا برق ليس الكرخ داري ولما رمانى اليه الدهر منذ ليال  
فهل فيك من ماء المعرفة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال  
ولا يشغلك الشعر عن التاريخ فابو العلاء يقول هذه  
التصيدة بعد ان وصل الى بغداد بليال قليلة وهو يقول بعد ذلك :  
دعا رجب جيش الغرام فاقبلت رجال تروودهم بعد رجال  
فهو اذن قد وصل الى بغداد في جمادى الثانية ، واكبر  
الظن ان هذه القصيدة هي اول ما صور شوقه الى المعرفة  
بعد ان وصل الى دار السلام .

وانت تريد الكلام الواضح اليسير الذي لا التواء فيه  
ولا غموض ولا رمز فيه ولا تلميح فاقرأ قوله :

إخواننا بين الفرات وجلق يد الله لا خبرتكم بمحال  
انبئكم اني على العهد سالم ووجهي لمّا يبتذل بسؤال  
وإني تيممت العراق لغيرها تيممه غيلان عند بلال  
وهممت ان امضي في الحديث ولكن صاحبي يمس كتفي



مساً رفيقاً وهو يقول : على رسلك ، الست ترى انا ننصف  
انفسنا وننصف ابا العلاء ان استأنفنا قراءة « ستط الزند » من  
اوله ؟ قلت هذا شيء قد يكون وقد لا يكون . ولكن  
الشيء الذي لا شك فيه هو انك ستقرأ معي هذا الكتاب  
الفرنسي الذي صرفتني عنه آنفاً ، او ستخلي بيني وبينه حتى  
اقرأه فقد شغفت بهذه الصحف الاولى منه . قال وهو  
يضحك : ولن تمضي فيه حتى تزداد به شغفاً وكلفاً .

نوفمبر ١٩٤٤



## عيد

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد  
هذا سؤال ألقاه المتنبي على أحد الأعياد في مصر منذ  
ألف عام ، وأظن ان كل شاعر أو غير شاعر يستطيع  
ان يلقى اليوم على عيد الاستقلال الذي تنعم به مصر  
السعيدة . ويستطيع ان يلقى في نفس اللهجة البائسة البائسة التي  
اصطنعها المتنبي ، فقد تغيرت أشياء كثيرة منذ ألف عام  
في مصر ، ولكن شيئاً واحداً لم يتغير وهو أن الشعب المصري  
ما زال كما تصوره قصيدة المتنبي راضياً ناعماً رضي البال  
تختلف عليه الاعياد فيستقبلها مبهجاً مغتبطاً لأنها تحمل اليه  
من الوان السعادة والبهجة والغبطة ما لا عين رأت ولا  
أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . والشعراء وأمثال  
الشعراء من المفكرين والمفلسين هم وحدهم الذين ينظرون  
الى هذا الشعب فاذا رأوه ساهياً لاهياً وراضياً ناعماً رسموا



على ثغورهم هذه الابتسامة الحزينة الكثيرة المرة ، وقالوا  
كما قال المتنبي :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد  
وقد أرادت دورة الفلك ان يستقبل المصريون اليوم  
عدين في نهار واحد : عيد قديم بعد به العهد وهو عيد وفاء  
النيل ، وعيد حديث قرب به العهد وهو عيد الاستقلال .  
ففي مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٦ أمضى المصريون ، وكانوا  
يومئذ مجتمعين الكلمة موحدية الرأي ، هذه المعاهدة التي تنظم  
الأمر بيننا وبين حلفائنا الانجليز ، ثم عادوا فقررروا ان هذا  
اليوم سيصبح عيداً وطنياً يذكر فيه المصريون خطوة  
خطيرة خطوها في سبيل الاستقلال . وما أظن أنهم قرروا  
أن يكون هذا اليوم عيداً يطمئن المصريون اليه ويقتنعون  
بما يصور من ظفرهم ببعض الحقوق ، وانما اعتقد انهم  
اتخذوه عيداً يثير في المصريين الأمل والشجاعة ومضاء العزم ،  
يذكروهم بأنهم جاهدوا فظفروا ببعض الحق ، فيجب عليهم أن  
يجاهدوا ليظفروا بالحق كله . مهما يكن من شيء فالمصريون  
سعداء اليوم قد قرّرت عيونهم ، وطابت نفوسهم ، واطمأنت  
قلوبهم لأن النيل قد وفى لهم بما عاهدهم على ان يمد لهم به في  
كل عام من الري والخصب والثراء ، ولأن حلفاءهم الانجليز  
قد وفوا لهم بما عاهدوهم عليه من احترام الاستقلال ،



والاعتراف بالكرامة ، والاحتفاظ لهم بالمودة والحب على  
اساس من الحق والعدل والمساواة .

وفى النيل فيجب أن يسعد المصريون ، ووفى الحلفاء فيجب  
أن يسعد المصريون ؛ وهم سعداء ، ألا ترى الى الحكومة قد  
قررت اراحة الوزارات والمصالح من العمل في هذا العيد  
السعيد ، فاباحت للموظفين ان يناموا حتى يرتفع الضحى ،  
وان يستيقظوا آمنين لا يشفقون من الانتقال الى دواوينهم  
مع صعوبة الانتقال ، ولا من هذه الاعمال الشاقة المرهقة التي  
ينهضون بها في مكاتبهم ، وأذنت لهم بان يقيموا في بيوتهم  
إن يشاءوا ويحتفلوا إلى أنديتهم وقهواتهم إن احبوا ، يلقي  
بعضهم بعضاً باسماء ، ويلقي بعضهم الى بعض الوان الحديث ،  
يتحدثون بما تنشر الصحف من اخبارهم واخبار نظرائهم ،  
ويتحدثون بما تنشر الصحف من ضروب الخصاص والصراع  
بين المصريين ، ويتفكهون بما تنشر الصحف المضحكة من  
الوان الفكاهة وفنون الصور وصور الاشاعات ، يحدون في  
هذا كله اللذة كل اللذة ، والنعيم كل النعيم . ومتى 'تلتبس اللذة  
إذا لم 'تلتبس في يوم العيد ، ومتى 'يطلب النعيم إذا لم  
يطلب يوم وفاء النيل بالري والثراء ويوم وفاء الحلفاء  
بالكرامة والاستقلال...

ألا ترى الى الحكومة قد أمرت ان ترفع الاعلام على



الدواوين في العاصمة والاقاليم ليرى الناس جميعاً ان الامة  
المصرية راضية مبتهجة تحتفل بعيدها السعيد او بعيدها  
السعيدين؟ كل شيء يدل في وضوح وجلاء على اننا سعداء ،  
ويوجد بيننا مع ذلك من يرسم على ثغره هذه الابتسامة  
الحزينة الكئيبة المرة ويقول في لهجة المتنبئ الساخرة اللذاعة :  
عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد  
ذلك لأن هؤلاء الناس يرون اشياء لا تراها الحكومة ،  
او لا تحب ان تراها ، اولا تحب ان يظهر انها تراها ، وهم  
حين يرون هذه الاشياء يشعرون بأن هذه السعادة الظاهرة  
ليست من السعادة في شيء وانما هي تجلد على احتمال الشر ،  
وتكلف لاحتمال الشقاء ، واحتيال للتخلص من المكروه . ف هؤلاء  
الذين أذنت لهم الحكومة بالراحة من الاختلاف الى الدواوين  
لا يسعدون بالراحة كما انهم لا يسعدون بالعمل ، وانما هم أشقياء  
حين يذهبون إلى مكاتبهم ، وأشقياء حين يستقرون في بيوتهم ،  
وأشقياء حين يتخلفون إلى أنديتهم وحين يتجاذبون اطراف  
الحديث . يأتيهم الشقاء المرّ من هذه النفوس التي خلقت  
لتحدث في الحياة أموراً ذات خطر فردّت إلى الجمول  
والخود والرضى بالقليل والقناعة بما لا يقنع به الا العاجزون  
الذين تفرض عليهم التواضع في الآمال والاماني ، وفي  
المطامع والمآرب فرضاً .



يأتيهم الشقاء المرّ من هذه النفوس التي كان يمكن أن تكون كباراً فاضطرت إلى أن ترضى بالصغر والذالة وتقع بالهين من الأمر فترضى بالعمل الذي لا يغني حين تعمل ، وترضى بالراحة العقيمة المجدية حين تستريح .

ان هذه الثغور الباسمة لا تصوّر نفوساً باسمة ، وإنما هو ابتسام يصور الكآبة ، وابتهاج يصور الحزن ، ورضى يصور السخط الذي عجز حتى عن أن يعلن نفسه إلى أصحابه فاستقر دفيناً في أعماق القلوب ، ملاً نفوس أصحابه استخفافاً بالحياة وانصرافاً عن جلائل الاعمال ، ويقنعها بما كتب لها من هذه الحياة التافهة التي تمرّ بأصحابها وبمن حولهم وبما حولهم كما يمضي المساء الرفيق على الحجارة الملّس فلا يترك فيها أثراً يسيراً أو عميقاً .

ان هذه الاعلام التي تحفّق مع الريح لا تصور خفقات القلوب ولا خلجات النفوس ، لأن القلوب لا تحفّق ولأن النفوس لا تحتلج ، وإنما هي حياة راكدة لا تدل على شيء ، لا تصور فوزاً قد ظفر به أصحابها ولا تصور املاً يطمح اليه أصحابها ، وإنما تصور اياماً تمضي يتتابع فيها الليل والنهار في غير طائل ولا غناء . لقد وفي النيل للمصريين بالري والثراء ، ولكن ما حظ المصريين من هذا الري ؟ وما نصيب المصريين من هذا الثراء ؟ انهم يبلغون ما



يقرب من عشرين مليوناً من الناس قد وفى لهم النيل جميعاً  
بالري والثراء ، فكم منهم يستمتع بهذا الري ؟ وكم منهم ينعم  
بهذا الثراء ؟ آحاد الالوف او عشرات الالوف او مئات  
الالوف ان شئت ، ولكن هناك ملايين وملايين من المصريين  
لا ينعمون بهذا الري ، وانما يشربون ماء يحمل اليهم المرض  
والأذى والعناء ، ولا يستمتعون بالثراء وانما يصارعون البؤس  
والحرمان ، فيصرعهم البؤس والحرمان آخر الامر ، وهم يسمعون  
ان حكومتهم تحتفل بوفاء النيل ، وهم يعلمون أن النيل قد وفى ،  
وهم يحتفلون بالعيد لأن الاعياد قد خلقت للاحتفال بها ، وهم  
يرضون عن وفاء النيل ويتهجون به لان وفاء النيل شيء  
يسرّ ويشيع الابتهاج .

ولكن وفاء النيل بالقياس اليهم معناه الكدّ الذي لا  
يعصم صاحبه من الجوع ، والعناء الذي لا يحمي صاحبه من  
الحرمان . معناه العمل لتمتليء بعض الايدي وتظل يد العامل  
خالية لا تمسك شيئاً ؛ معناه الشقاء لتكتظ بعض البطون  
ويظل بطن العامل خالياً يمزقه الجوع ؛ معناه العمل لينعم  
فريق من الناس ، وليمعن اكثر الناس في هذا الابتئاس  
البغيض الذي ألفه اصحابه حتى رأوه حقاً عليهم ، وحتى  
وثقوا بانه نصيبهم من الحياة فرضوا به واطمأنوا اليه ولم  
يحاولوا تغييره ولا التخلص منه ، لانهم لا يستطيعون مغالبة



القضاء فهم ماضون في شقائهم يحملون لآلامهم ، راضون  
بما قسم لهم ، والمتني وأمثاله ينظرون اليهم فيفهمون عن  
صمتهم ويبنون عن عيهم بهذا البيت :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد  
كذلك يحتفل المصريون بوفاء النيل . فأما احتفالهم  
بالاستقلال فليس أقل روعة ولا بهجة ولا جمالا ، هو ملائمتهم  
كل الملائمة لحياتهم المادية التي يحيونها .

كانوا يظنون أن إمضاء المعاهدة خطوة تقرب من الامل  
وتدني من الحق ، وكانوا يظنون انهم قد دافعوا عن  
الديمقراطية وأبوا في الدفاع عنها بلاء حسناً ، وكانوا  
يظنون انهم قد صبروا حين قل الصابرون ، وانهم قد وفوا  
حين قل الأوفياء ، وانهم قد ثبتوا حين زغت الأبصار ،  
وطارت النفوس ، وبلغت القلوب الحناجر ، وان هذا كله  
سيبلغهم آملهم ويكسبهم حقوقهم ، ولكنهم نظروا فإذا الذين  
لم يصبروا ولم يثبتوا ولم يفوا احسن منهم حالا وادنى منهم  
إلى تحقيق الآمال وارضاء المطامع والمآرب .

كانوا يظنون انهم سيلغون الاستقلال الكامل وان  
حلفاءهم سيهدون اليهم ما بقي من هذا الاستقلال أداء  
للحق واعترافاً بالجميل . فنظروا فإذا حلفاؤهم يؤثرون الصمت  
ثم يقولون سننظر في الوقت الملائم مقدرين لمصالحنا المتبادلة ...



كانوا يظنون ان حكومتهم ستطالب بهذا الحق وستجد  
في الظفر به لا تريخ ولا تسويح ، فاذا رئيس حكومتهم  
يعلن اليهم انه ينتهز الفرصة ولن يقصر عن انتهازها حين  
تسبح . . .

كانوا يظنون ان السلام سيحمل اليهم أمناً وعدلاً ورضى ،  
فاذا السلام يمثلهم فيما كانت الحرب تفرض عليهم من الخوف  
والجور والظلم . وكانوا يظنون ان السلام سيردّهم أحراراً كما  
ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، فاذا السلام يمسكهم في القيود  
والاعلال كما أمسكتهم الحرب في القيود والاعلال .

كانوا يقدرّون انهم سيحتفلون في هذا اليوم بكسب  
الحقوق ونيل الآمال ، فاذا هم يحتفلون في هذا اليوم بامضاء  
المعاهدة التي أكل الدهر عليها وشرب ، والتي أثبتت الاعوام  
القليلة لكثرة ما في هذه الاعوام من الاحداث والخطوب ،  
واذا هم اليوم كما كانوا في سنة ١٩٣٧ بعد ان مضى عام  
واحد على امضاء المعاهدة يرضون بالقليل وينتظرون الكثير  
كأن الحوادث لم تحدث ، وكأن الخطوب لم تلمّ ، وكأن  
ايطاليا والمانيا واليابان لم تستسلم بلا قيد ولا شرط .

فهم من أجل هذا كله يحتفلون بوفاء الحلفاء كما يحتفلون  
بوفاء النيل . يوم من الايام يمرّ وتتبعه أيام أخرى ليست  
خيراً منه وعسى ألا تكون شراً منه . نعيمٌ قد قسم للقلة



وبؤس قد فُرض على الكثرة، وسلطان قد أُتيح للقلة،  
وخضوع قد فرض على الكثرة. ومصالح الحكومة  
ودواوينها معطلة، والموظفون يستريحون في الدور ويقطعون  
الوقت في الاندية، والشمس تشرق باسمه ساخرة، والليل يقبل  
عابساً مزدرياً، والاعلام تحقق، والشعب يعمل، والمتنبئ وأمثاله  
يرسمون على ثغورهم هذه الابتسامة الحزينة الكثيرة المرة  
ويسألون في صوت ساخر حزين :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

١٩٤٤



## طيف

القي كل واحد منهما إلى صاحبه نظرة دهشة واجمة فيها  
كثير من هذه الغفلة الخائفة التي تنشأ من المفاجأة والتي تلمّ  
بالآمن المطمئن حين يفجأه من الأمر ما لم يكن ينتظر ،  
بل ما لم يكن يخطر له ببال . وكانت النظرة التي التقاها  
كل منهما إلى صاحبه خاطفةً أول الامر ولكنها عادت فطالت  
واستقرت شيئاً ما ، ولزمت مع ذلك صمتاً إن صور شيئاً  
فالما يصور انعقاد اللسان حين تسيطر الخيرة على العقل فلا  
يفكر ، وعلى القلب فلا يشعر ، وعلى اللسان فلا يقول .  
وقد لبث كل منهما بازاء صاحبه ذاهلاً غافلاً لا يعرف  
ماذا يصنع ولا يدري كيف يقول ، ولو قد عرض لهما  
هذا اللقاء المفاجيء لصابتهما الخيرة وقتاً طويلاً او قصيراً ،  
ولانتهيا آخر الامر إلى مخرج من هذه الخيرة بكلمة تنفجر  
عنها الشفاه ، او ضحكة تنفجر لها الافواه . ولكنها في



موقفها هذا لم يكونا يستطيعان ان نخرجها من حيرتها الصامتة  
إلى الضحك او الى الكلام . فقد كان بينهما هذا القبر النائم  
يضرهما الى شيء من الوقار لا يملكان معه ضحكا ان ارادا  
الضحك ، ولا كلاماً ان ارادا الكلام . وهما من اجل ذلك  
قد لبثا صامتين واجمين يلتزمان مخرجاً من هذا الصمت  
ومنصرفاً عن هذا الوجوم ، فلا يجدان الى شيء من ذلك  
سبيلاً . وقد أخذ كل واحد منها يحدث نفسه بالانصراف عن  
هذا القبر ، يرى في هذا الانصراف فرجاً من هذا الحرج ،  
ونخرجاً من هذا الضيق ، ولكن كل واحد منهما كان يسأل  
نفسه ايبدأ هو بالانصراف ام ينتظر حتى يضطر صاحبه الى  
ان ينصرف ؟ وانها لفي هذه الحيرة المتصلة واذا خطو  
يسمع وقعها من بعيد ، فيرفعان رأسيهما وينظران من حيث  
يسمعان ، فاذا شخص يقبل بطيئاً رزيناً متكلفاً الوقار ،  
ولا يكاد يدنو منها حتى يعرفاه كما يعرف كل واحد منهما  
نفسه ، فهو صديقها الثالث الذي تعود ان يلقاهما حين يقبل  
المساء من كل يوم ، وان يسمر معهما حيث تعودوا ان  
يسمروا في نادٍ من اندية القاهرة اول الليل ، وان ينصرف  
معهما الى حيث تعودوا ان ينصرفوا حين يوشك الليل ان ينتصف  
فيلقون في بعض الاندية الخاصة ، من يلتقون من رفاق اللهو  
وخلان العشب والمجون ، حتى اذا كاد الليل يبلغ ثلثيه أوى



ثلاثتهم الى تلك الدار التي تعودوا ان يأووا اليها في آخر الليل وقد خلصت نفوسهم للهو ، وصفت ضمايرهم للعبث ، وحسن استعدادهم للمجون ، او قل ان شئت لاستيفاء حظهم من المجون .

هنالك يكون شرب الكؤوس الأخيرة ، وهنالك تنطلق اللسنة بما تشاء في غير تكلف ولا تخرج ، وهنالك ترسل النفوس على سجيئتها في غير احتياط ولا تحفظ ، وهنالك يخلع الانسان عن نفسه هذه الحُصَال المصطنعة التي فرضتها الحضارة على المتحضرين ، ويصير الى حال من الانسانية المترفة الفاجرة التي تنحطّ بصاحبها وترتقي بصاحبها ، لا ادري ، الى حيوانية مترفة لا ادب فيها ولا وقار . حتى اذا انهمز الليل وولى مدبراً ، وانتصر الصبح واقبل ظافراً ، انسلوا من هذه الدار لا تكاد اقدمهم تحملهم ولا تكاد اجسامهم تسع نفوسهم ، ولا تكاد السنتهم تنطق ، ولا تكاد عقولهم تفكر ، ولا تكاد قلوبهم تشعر لانهم قد اسرفوا على انفسهم في الاستمتاع بانسانيتهم المهدبة التي نعمت حتى افسدها التعميم ، واثرت حتى اطفاها الثراء ، وارتقت حتى انحدر بها الارتقاء الى الدرك الأسفل من الانحطاط ، ولا يكادون يبلغون باب الدار متساقلين متهاكين يسندهم الخدم مكبرين لهم ساخرين منهم حتى يتلقى كل واحد منهم سائق سيارته فيقره على



شيء من الجهد في السيارة يظهر الاكبار له ويضمر الاستهزاء به ، ثم يمضي بهذا المتاع الغالي الرخيص حتى ينتهي به الى داره ، وحتى يردّ منه الى اهل الدار شيئاً عظيماً جداً في عين الناس ، حقيراً جداً في عين نفسه وفي عين اهله ، وهو هذه البقية التي تركها الصبي واللهم والخلاعة والمجون .

فاذا تقدم النهار ، وارتفع الضحى ، وزالت الشمس او كادت تزول ، افاقت هذه البقية البالية من نومها الثقيل الغليظ وتلاها عمال الترف ، اولئك الذين يجددون البالي ، ويحسنون القبيح ، ويقيمون المتهدم ، ويردون الشباب الى من فارقههم الشباب ... وما هي إلا ساعات حتى تستأنف هذه البقايا البالية حياة جديدة فيها نشاط وقوة ، وفيها جمال ونضرة ، وفيها شوق مجدّد الى اللهو ، وفيها نزوع مستأنف الى المجنون . ولا يكاد النهار يبلغ آخره حتى يخرج من هذه الدور اشخاص فيها كثير من المرح وكثير من الفتون ، وكثير جداً من الجهل والغرور ، واذا هؤلاء الاشخاص يلتقون في ناديمهم الذي تعودوا ان يلتقوا فيه ، فتكون الدعابة الفاترة ، وتكون الفكاهة الباردة ، ويكون المزاح السخيف ، ويكون الاقبال الفاتر على العبث الفاتر . وكلما تقدم الليل ازداد النشاط ، واشتد المرح ، وعظم الخطار من العريضة ، واخذ كل جسم من هذه الاجسام يصير ثوباً قد دخلت فيه نفس جنية طغى عليها



الهُوى وجمحت بها الشهوة ، واندفع بها حب الأثم الى غير حد ، واذا هم يستأنفون ليلاً كليلهم الماضي ، ويستقبلون حياة ناعمةً بأثمة كحياتهم الماضية ، ويعودون الى دورهم مع الصبح بقايا محطمة لا تريد شيئاً ولا تقدر على شيء ، ولا تصلح لشيء ، حتى يشتمل عليها النوم فيرد اليها شيئاً من قوة ، ثم يتناولها عمال الترف الذين يرقعون البالي ويجددون القديم ، فيعملون ويعملون ، ويحتالون ويتكلفون ، حتى يردوا هذه البقايا البالية اشخاصاً قادرة مريدة ولكنها لا تقدر إلا على الفساد ، ولا تريد إلا الاثم والمجون .

ولكنهم في هذه المرة لم يلتقوا في ناديهم ذاك الذي تعودوا ان يلتقوا فيه حين يقبل الليل ، وانما التقتوا في مكان لم يكن يُنتظر ان يلتقوا فيه ، ولا ان يذهب اليه واحد منهم ، فليس فيه لهو ، وليس هو مظنة للهو ، وليس فيه سمر ، ولا هو مظنة للسمر ، ومتى لما الناس بين القبور ؟ ومتى سمر الناس حول قبر لم تمض على اقامته إلا اسابيع قليلة ؟ كيف ذهب هؤلاء النفر الى هذا المكان الموحش في قلب الصحراء ؟ وكيف التقى هؤلاء النفر حول هذا القبر الذي لم تستقر فيه صاحبه إلا منذ امد قريب ؟ هذه هي المسألة التي القاها كل واحد منهم على نفسه فوجد الجواب عليها سهلاً يسيراً ، وهم ان يفكر فيها ويستقصي التفكير ويتمعقه ،



لولا انه لم يخلق للتفكير ولا للاستقصاء ولا للتعق ، وانما خلق للعبث الذي لا يغني والهو الذي لا يجدي ، والمجون الذي يفسد المروءة ويذهب بنفرة الاجسام والنفوس .

فلم يكذب ثالث القوم يرى صاحبيه حتى أخذه ما أخذهما من الدهش ، وعراه ما عراهما من الدهول ، وغشيه ما غشيهما من الوجوم ، ولكنه لم يملك نفسه طويلاً ، وانما هم أن يضحك ثم استحي من القبر ، فولى مدبراً وتبعه صاحباه حتى اذا بعدوا عن هؤلاء القوم الذين لا توار بينهم ولا وصل إلا ان يكون نشور ، كما يقول ابو نواس ، تساءلوا كيف كان سعيهم إلى هذا المكان ، ووقفهم عند هذا القبر ، والتقاؤهم على غير ميعاد ؟

وقد جعل بعضهم يكذب بعضاً في شيء من الحيرة المتبلدة أو من التبلد الحائر ، ولكنهم توافوا ما رأوا ووازنوا بين ما سمعوا فلم يروا بداً من أن يصدق بعضهم بعضاً ، ولم يروا بداً من أن يعترفوا بهذا الامر الغريب العجيب ، الذي كان خليقاً أن يملأ قلوبهم روعاً ونفوسهم هولاً ، لولا انهم تعودوا أن يجدوا في الكأس ما يغسل قلوبهم من كل روع ، وينفي عن نفوسهم كل هول . ولست أدري إلا ما صارت أمورهم جميعاً ، ولكن أعلم أن أحدهم على أقل تقدير قد أدركه ذهول يشبه الجنون ، وغفلة



تشبه الجبل ، وامت به علة لست أدري أيثبت لها أم يعجز  
عسى أن يقاومها ويجد إلى البرء منها سبيلاً .

وقد تسألني أنت عن سعيهم إلى هذا المكان الموحش  
في الصحراء ، ووقوفهم عند هذا القبر الذي لم يقيم الا منذ  
أمد قريب ، والتقامهم على غير ميعاد بين هذه القبور حين  
أخذت الشمس تنحدر إلى مغربها ، وتجر على هذه القبور  
أشعة شاحبة إن صورت شيئاً فالما تصور حزناً كأنه كان  
صديّ يردده الجو لهذا البلى الذي كان يعمل جاهداً فيما  
احتوته هذه القبور .

ولست أكره أن أقصّ عليك مصدر هذا كله ، ولكني  
أعتقد انك ستدهش لما أقص عليك من قصص ، وتستنكر  
ما أسوق اليك من حديث ، فانت وما شئت من الشك ،  
وأنت وما احببت من الثقة ، وانما الشيء الذي أطمئن اليه  
أنا كلّ الاطمئنان ، هو اني انما احدثك بشيء قد وقع ،  
واصور لك في هذا الحديث امرأً قد كان . وكل ما اتقى  
هو الا يعرض لك مثل ما عرض لهؤلاء النفر الثلاثة الذين  
أفسد عليهم امرهم ما اغرقوا فيه من عبث ولهو ، وما تهالكوا  
عليه من اثم وجون .

كان هذا القبر الذي التقوا عنده مستقراً لغانية حسناء  
رائعة الحسن ، بارعة الجال ، فاتنة الظرف ، ساحرة الطرف ،



تعودوا ان يلتقوها في تلك الدار التي كانوا يأوون اليها من آخر الليل ويستفدون فيها ما بقي لهم من قدرة على الجون والعبث ، وكانت تلقاهم لقاء سواء ، تعدل بينهم فيما تهدي اليهم من ظرفها وخفتها ومن رشاقته وناقته ولباتها ، ومن هذا التودد الذي يغري ويطمع حتى يخيل الى المرء انه مشرف على الغاية ، ومنته الى الامد ، وبالغ ما يريد ثم هو لا ينتهي به مع ذلك إلا الى اليأس المهلك والقنوط الذي يملأ القلوب لوعةً وعذاباً ، فكان كل واحد من خلانها يستطيع ان يتمثل قول جميل :

ومنتني حتى اذا ما ملكتني بقول يحل العصم سهل الأباطح  
تناءيت عني حين لا لي حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح  
ولكنهم كانوا أجمل جهلاً ، وأحمق حمقاً ، وأفرغ افئدة ، وأسخف عقولاً ، من ان يتمثلوا الشعر أو شيئاً يشبه الشعر ، إنما كانوا أصحاب لذة غليظة جافية يشتون لينعموا ، وينعمون ليشقوا ، ويألمون ليلذوا ، ويلذون ليألموا دون ان يوازنوا بين شقاء ونعيم ، او بين لذة وألم ، قد دفعوا الى الحياة وما فيها من نعيم وبؤس ، فهم مندفعون الى الحياة لا يفكرون في نعيم ولا بؤس . دفعهم الى هذه الحياة المنكرة ثراء لم يجدوا في كسبه عناء ، وتربية لم تمنحهم احلاماً راجحة ولا بصائر نافذة ولا قلوباً قادرة على ان ترتفع عن اللذات المادية



الآثمة والشهوات المندفعة الجاحمة .

فكانوا اذا يلقون صاحبتهم تلك فيمن يلقون من خليلات  
اللهو ورفيقات اللعب والمجون يجدون في هذا اللقاء حباً  
وبضاً ، ورضى وسخلاً ، وانجاشاً واخناقاً ، ولكنهم قد اتصلت  
نفوسهم جميعاً بهذه الفتاة اتصالاً شديداً ، وتعلقت قلوبهم بها  
تعلقاً عنيفاً ، واشتدت آمالهم فيها وعظم بأسهم منها حتى أخذ  
بعضهم بنفس على بعض ما يصدر عنها من لفظ ولحظ وإشارة ،  
وحتى كاد بعضهم يصبح فيها لبعض عدواً . وهم على ذلك  
كانوا يجتمعون ويفترقون لا يزيدهم الاجتماع إلا تنافساً  
وتباعداً ولا يزيدهم الافتراق إلا حرصاً على التداين وكلفاً باللقاء .  
وقد أخذ كل واحد منهم يظن بصاحبه الظنون ، يزعم  
انها تؤثر فلاناً من دونه ، ويشدد حثده على فلان ومكره  
به ، وكيده له حتى كاد الامر ينتهي بهم إلى اعظم الشر ،  
ولكن الأيام اراحتهم من هذا العناء المهلك ، فردت عنهم  
هذا الشر المستطير ، لأنها اختطفت من بينهم هذه العادة  
الحسنة في حادثة من هذه الحوادث التي تنقل الناس من  
الدار الاولى إلى الدار الآخرة في طرفة عين ، فاجتمعت  
قلوبهم على الحزن والشكل ، وحزن هؤلاء وامثالهم لا يتصل  
ولا يطول ، فما هي إلا ايام حتى يستأنفوا حياتهم كما الفوها  
عابثة ماحنة ، وسخيفة فارغة .



ولكن احدهم يفيق من نومه مروّعاً ، مفزّعاً ، شديد  
الذهول ، فقد رأى طيف هذه الغادة الحسنة يلمّ به في  
اثناء نومه التّيل فيذود عنه النوم ويردّه الى يقظة شديدة ،  
واذا هو ينظر فيرى صاحبه كما تعود ان يراها فانتمة  
ساحرة تدنو منه وتلطّف له وتتودد اليه ، وتقول له في  
صوتها العذب الذي يسحر القلوب : ما كنت احسب انك  
ستتركني حيث انا وحيدة مستوحشة لا تهدي إلي زيارة  
ولا تُحدث بي عهداً... ما اسرع ما نسيتني واني على ذلك  
لم انسك ، ولا يمكن ان انساك ، ألمم بداري قبل ان  
يقبل الليل ، ثم تنصرف عنه ، وينظر فلا يرى شيئاً ، ويتسمع  
فلا يسمع شيئاً ، وينهض فيستأنف حياته كما تعود ان يستأنفها كل  
يوم ، لا يلقي بالاً إلى ما رأى ، ولا يلقي بالاً الى ما سمع ،  
فاذا كان الغد جاء الطيف كما جاء أمس ، وتحدث اليه  
بمثل ما تحدث به أمس .

وقد تكررت هذه الزيارة مرة ومرة حتى لم يشك في أن  
من الحق عليه أن يلم بهذا القبر وأن يهدي إليه تحيته في  
طاقة من الزهر . وقد فعل فلم يكذب يبلغ القبر حتى رأى  
صاحبه ، ولم يكذب يقوم على القبر مع صاحبه حتى أقبل  
صاحبها الثالث . فلما انصرفوا عن القبر قص أحدهم على  
صاحبه ما رأى وما سمع ، فاذا كل واحد منهما قد رأى



مثل ما رأى ، وسمع مثل ما سمع ، وأبطأ مثل ما أبطأ ،  
ثم أقبل على القبر كما أقبل عليه يحمل إليه التحية وطاقية  
من الزهر .

أتراها أرادت ان تستبقي بينهم المنافسة والحسام بعد  
موتها ، وان تضطربهم الى ان يحفظوا لها من الورد مثل ما  
كانوا يظهرون لها قبل ان تموت ، أم تراها اضغاث احلام  
قد عبثت بنفوس هؤلاء نفر الثلاثة ؟ ولكن كيف يتفق  
ان يلم الطيف بهم في يوم واحد ويتراءى لهم في صورة  
واحدة ويلقي اليهم حديثاً واحداً ويضرب لهم موعداً واحداً ؟  
قلت لصاحبي حين انتهى من حديثه الى هذه الاسئلة :  
لا أدري ، ولا استطيع ان افتح عليك ، فسل من شئت  
من الجامعيين الذين يدرسون دقائق علم النفس فاعلمك تجد  
عندهم غناء .



## ضمير سائر

آوى الى سريريه راضياً ناعماً البال ، وهب من سريريه  
موفوراً طيب النفس ، ونام بين ذلك نوماً هادئاً هائئاً لم  
تنغسه مروعات الاحلام ، ولم يكد يخرج من غرفته حتى  
تلقاه الصبية من بنيه وبناته بوجوه مشرقة تتألق فيها نضرة  
النعيم ، وثغور جميلة تبسم عن مثل اللؤلؤ المنضود ، وحملت  
اليه اصواتهم الرخصة العذبة تحية الصباح فردها عليهم في صوت  
حلو يجري فيه الحزم الصارم ويشيع فيه الحنان الرفيق ، وأنفق  
معهم ساعة حلوة يداعب هذه ويلعب ذاك ، ثم خلص منهم  
بعد جهد ، وفرغ لنفسه ليصلح من شأنه قبل ان يغدو الى  
عمله ، وكان عمله خطيراً ، وكان اهتمامه لهذا العمل وعنايته به  
أعظم منه خطراً لانه كان قوي الضمير حريصاً اشد الحرص  
على اداء الواجب كاملاً ، وكان أبغض شيء اليه ان يتهمه  
أحد او ان يتهم هو نفسه بأيسر التقصير .



ولم تكن عنايته بحسن زيه وجمال شكله اقل من عنايته  
بالعمل والواجب ، فقد استقر في نفسه منذ بلغ الشباب ان  
من كمال المروءة ان يكون الرجل حسن المنظر جميل الطلعة ،  
ما وسعه ذلك ، وان تقع عليه العين فلا تقتحمه ، وتبلغه الابصار  
فلا تزور عنه ولا تعدوه الى سواه . ذلك ادنى ان يحبيه  
الى النفوس ، ويحسّن مكانه في القلوب ، ويجعل محضره خفيفاً ،  
وعشرته شيئاً يُطلب ويرغب فيه .

وكان الله قد منح صاحبنا حظاً من جمال الخلقة ، وخلقه  
في تقويم حسن ، فزاده ذلك عناية بنفسه واهتماماً بمنظوره ، وشجعه  
الناس على ذلك بما كانوا يهدون اليه من ثناء ، وشجعه النساء  
خاصة على ذلك بما كنّ يحمدن من صورته الرائعة وزيه  
اللائق وحسن تلفظه في اللقاء والعشرة والحديث ، كل ذلك  
فرض عليه العناية بجسمه وزيه وشاربه اكثر مما تعود الناس  
ان يصنعوا ، فكان يخلو في غرفته كل صباح ، وكان يخلو  
في غرفته كل مساء وقتاً غير قصير ، ثم يخرج من غرفته  
ليغدو الى عمله او ليروح الى ناديه ، فلا يكاد اهله يرونه حتى  
يحدث منظره الرائع في نفوسهم فجاءة جديدة ، على كثرة  
معاشرتهم له ومخالطتهم إياه .

وقد خلا في ذلك الصباح الى نفسه في غرفته فأدال  
الخلوة ، وغير وبدل من زيه ما استطاع التغيير والتبديل ،



حتى اذا اعدّ نفسه للناس او اعتقد انه اعدّ نفسه للناس ، وهم  
ان يخرج القى الى المرأة هذه النظرة السريعة الحاطفة التي  
كان يلقيها اليها دائماً كأنها يسألها رأيا الاخير قبل ان يخرج  
للقاء الناس . وكان رأيا الاخير دائماً حسناً مقنعاً يشيع في  
نفسه شيئاً من الرضى الهادئ والثقة المنتظرة . ولكن رأيا  
المرأة الاخير في ذلك الصباح لم يكن حسناً ولا مقنعاً ولا  
مشيعاً للرضى والثقة ، وانما كان مزعجاً مروعاً . فلم تكد  
عينه تبلغ المرأة حتى ارتدت عنها مذعورة ، ثم عادت اليها  
مشفقة ، وارتدت عنها وقد نقلت الى قلبه ذعراً يبلغ الهلع ،  
واذا هو يرتدّ عن مكانه ، ويرجع ادراجه مسرعاً ، ويجوّل  
وجهه عن المرأة تحويلاً تاماً حتى لا تخطئ عينه فتمتد اليها  
مرة اخرى . وقد اخذ قلبه يخفق خفقاً شديداً سريعاً  
متصلاً ، واخذت جيبته تنضح بشيء من عرق بارد ، واخذت  
قطرات من هذا العرق تنطبع على وجهه ، وجعل الدوار  
يعبث به وبكل شيء من حوله حتى خيل اليه ان الغرفة  
كلها قد استدارت فأصبحت المرأة وراءه ، واصبحت هذه  
المائدة التي كان يجلس اليها ليصلح من شأنه ، امامه . واذا  
هو مضطر الى ان يتماسك ويتماك ، واذا هو عاجز عن  
ذلك ، فيجلس على اول كرسي يبلغه مضطرباً بمعناً في الاضطراب ،  
حائراً لا يكاد يتبين حيرته ولا يكاد يتبين مصدرها . ومع



ذلك فقد كان مصدر هذه الحيرة يسيراً جداً غريباً جداً في  
 وقت واحد . كان يسيراً لأنه لم يكن الا ما رأى في  
 المرأة ، وكان غريباً لأنه لم ير في المرأة وجهه وانما رأى  
 اقبح وجه يمكن ان يكون الله قد خلقه وابشع منظر يمكن  
 ان يتحزن الله به الناس او القروء . وقد طال جلوسه على  
 كرسيه ، وإطرافه الى الارض ، واغراقه في الحيرة ، ثم اخذ  
 جسمه يهدأ شيئاً فشيئاً وجعل قلبه يستقر في صدره قليلا  
 قليلاً ، وامتدت يده فاترة الى منديلٍ امرأة على وجهه فجفف  
 به العرق ، وارتسمت على ثغره ابتسامة هادئة فيها شيء من  
 غموض وشيء من رضى ، فقد ثابت نفسه اليه وجعل يسخر من  
 هذا الروح الذي ألمّ به ، فأكبر الظن ان شيئاً من علة قد  
 ألمّ بمعدته فأفسد عليه مزاجه شيئاً ما ، ثم انشأ يسأل نفسه  
 عما طعم أمس وعما شرب ، فلم ينكر من طعامه ولا من شرابه  
 شيئاً . فقد طعم أمس وشرب كما كان يطعم ويشرب كل  
 يوم ، ولكن بمعدته شيئاً من غير شك ، هو الذي خيل  
 اليه ما خيل حين مد عينه الى المرأة . ومن المحقق انه لم  
 يكن يحسّ ألماً ولا يشعر بشيء مما يشعر به المرضى حين  
 يطرأ عليهم المرض ، ولكن لا سبيل الى تعليل هذه الظاهرة  
 الطارئة الا بشيء اصاب معدته او كبده ، وهو على كل  
 حال قد استرد شيئاً من طمأنينته ، فعاد الى شأنه يصلح منه



ما افسد هذا الاضطراب ، فلما بلغ من ذلك ما ارضاه ازمع  
 ان يخرج من غرفته دون ان يسأل هذه المرأة المشؤمة  
 عن شيء . ولكن الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور  
 الناس من الجنة والناس التقى في روعه مع كثير من البقاة  
 والمكر ان من الحق عليه ان يسأل هذه المرأة التي تعود  
 ان يسألها دائماً ، والتي تعودت ان تصدقه دائماً ، فمن يدري  
 لعل شيئاً ألمّ به فغير من وجهه وشكله وهو لا يدري ؟ وما  
 ينبغي ان يظهر الناس منه على ما لا يجب ان يظهروا عليه .  
 وقد التقى نظرتة إلى المرأة فارتدت عينه مذعورة ثم عادت  
 الى المرأة مشفقة ، ثم ارتدت وقد حملت إلى قلبه جزءاً وهلعاً ،  
 واذا هو يجاهد ليجلس صيحة قد همت ان تخرج من حلقه فتملاً  
 الغرفة من حوله وتدعو اليه أهل الدار . ولكنه ردّ هذه الصيحة  
 الى مستقرها ولم يتح لها ان تنفجر ، واستأنف اضطرابه ذاك .  
 ثم ثابت اليه نفسه بعد لأي فيسرع الى الجرس يدقه ، فاذا دخلت  
 عليه الخادم رفع اليها وجهه وظل صامتاً حيناً يريد ان يعرف  
 أتكرر الخادم من امره شيئاً ، فلما رأى الخادم كدأها  
 كلها دعاها اليه قائمة واجمة تنتظر امره لا تنكر شيئاً ،  
 ولا تعرف شيئاً ، أولاً تظهر معرفة ولا انكاراً ، قال  
 لها في صوت هادئ يكاد يضرب : أنبئي سيدتك اني  
 انتظرها . وأقبلت زوجها بعد حين فرأته قائماً باسمّاً ينتظر



مقدمها ، فلما رآته اخذها منظره كما تعود ان يأخذها كل صباح وكل مساء وسألها هو أتكرين من امري شيئاً ؟ قالت متضحكة : وماذا تريد ان انكر من امرك ! انما انت كما تعودت دائماً ان أراك رائع الشكل ، جميل المنظر ، خلاب للنساء . إلى اين تريد ان تغدو اليوم ، فأني أراك تكلفت عناية بزيك فلما تتكلفها ؟ قال والى اين اغدو الا إلى عملي ؟ قالت فان عملك لا يحتاج إلى كل هذا التأنيق . ولكنه أعاد عليها قوله : افى الحق انك لا تنكرين مني شيئاً ! قالت مغرقة في الضحك : في الحق اني انكر منك هذا الاسراف في التجميل . قال في شيء يشبه الذهول : ان هذه المرأة تنبئني بغير ما تقولين . ثم التقى على المرأة نظرتة الخاطفة تلك وارتد عنها وجلا مذعوراً يقول لامراته التمس لي طيباً . وقد عاده طيب وطيب وطيب ، عادوه متفرقين وعادوه مجتمعين ، وفحصوا من جسمه كل ما يمكن ان يفحصوا ، فلم يروا به بأساً ، ولم يشخصوا له علة ، ولم يصفوا له دواء ، وقال له قائلهم ما نرى بجسمك من بأس فالتمس دواء نفسك عند نفسك ، فما نظن إلا ان في ضميرك شيئاً يؤذيك على علم منك او على غير علم . وقد غيرت المرأة في غرفته مرة ومرة ولكن المرايا كلها جعلت كلما التمس نفسه فيها ردت اليه صورة غير صورته وشكلاً غير شكله ، وملاّت قلبه



فرقاً وروعاً . وقد تسامع أعوانه واصحابه بأنه مريض  
 منذ لزم غرفته وانقطع عن عمله فجعلوا يسعون اليه ليعودوه ،  
 يلقاه اقلهم ، ويرد عنه اكثرهم ، وينبأ اولئك وهؤلاء من امره  
 بغير الحق ، تختزع لهم العلل ، وتبتكر لهم الادواء ، فيصدق  
 منهم من يصدق ، ويكذب منهم من يكذب ، ويشك منهم  
 من يشك . وكنت من هؤلاء الاصدقاء الذين سعوا اليه  
 وسألوا عنه ، ثم اتيج لهم ان يروه . وكنت اثيراً عنده كما  
 كان اثيراً عندي ، لا اخفي عليه من ذات نفسي شيئاً ، كما  
 لا يخفي عليّ من ذات نفسه شيئاً . وقد لقيته فيمن لقيه  
 من اصحابه ذات يوم ، فسمعنا منه ، وقلنا له ، وضربنا معه  
 اخماساً لاسداس في امر علة ، نصدق نحن في حيرتنا ، ويتكلف  
 هو لنا الحيرة تكلفاً لا يكاد يخفى عليّ . فلما هممنا ان ننصرف  
 استبقاني في لباقة وظرف ، فبقيت ومضى الحديث بيننا الواناً  
 ساعة من نهار ، ثم عدنا إلى علة فاذا هو يتحدث إليّ بأمره  
 كله في وضوح وجلاء .

قلت ضاحكاً : ألعلك قرأت هذه القصة الانجليزية التي  
 كتبها اوسكار ويلد وسماها صورة دوريان جري فان فيها  
 ما يشبه قصتك من بعض الوجوه . قال فانك تعلم اني لا  
 أقرأ الانجليزية ولا أقرأ لغة اوروبية ، ولا اعرف ان هذه  
 القصة قد نقلت الى العربية . قلت او لم يتحدث اليك قط



متحدث عن هذا الكتاب وكاتبه ؟ قال سمعت اطرافاً من الحديث عن اوسكار ويلد ، ولكن لم اسمع عن هذا الكتاب من كتبه قليلاً ولا كثيراً . فحدثني انت عن هذا الكتاب . قلت لقد قرأته منذ زمن بعيد واذكر انه يعرض على قرائه قصة فتى حسن رائع الحسن ، جميل بارع الجمال ، اتخذ له صديق مصور ، صورةً تطابق شكله جمالا وروعة ، وقد اقتصرت هذا الفتى في مستقبل ايامه سيئات كثيرة ، واجتراح آثاماً مختلفة ، فبغضت اليه نفسه أشد البغض ، وقبحت صورته المصنوعة في عينه اشنع القبيح ، ففهاها من حجرات داره وغرفاته الى حيث يُنفى سقط المتاع . ولكنه كان يلم بها من حين الى حين تريداً من بغضه لها وسخطه عليها ، واستعذاباً لهذا السخط وذلك البغض . ثم اصبح الناس ذات يوم فرأوه مقتولا الى جانب صورته ، اراد ان يمزق الصورة فمزق صدره . وقد اراد اوسكار ويلد فيما اظن ان يصور تأثير الندم على ما يُقترب من الآثام في بعض الضمائر والنفوس ، فلم تكن هذه إلا مرآة لضمير دوريان جري ، رأى فيها ما كان يملأ ضميره من السيئات المنكرة والجرائم البشعة .

قال صاحبي في صوت يأتي من بعيد : وما انا وهذه القصة ؟ قلت في صوت يأتي من بعيد ايضاً : خشيت ان



تكون قد قرأتها او سمعت عنها فأثرت في اعصابك تأثيراً  
سيئاً ، فما اكثر ما تؤثر الكتب قيمها وسخيفها في اعصاب  
الناس ، فتحملهم على غير ما اراد المؤلفون ان يحملوهم عليه .  
قال صاحبي : وعلى ثغره ابتسامة حزينة : هوّن عليك فاني لم  
أقرأ هذا الكتاب ، ولم اسمع عنه ، ولم اتأثر به قليلاً ولا  
كثيراً ، ومع ذلك فان من حقه ان يقرأ ، قلت - وقد  
ندمت بعد ذلك على ما قلت - فالتمس في اثناء نفسك  
وأحناء قلبك خطأ لعلك قد دُفعت اليه او مساءة لعلك قد  
قدمتها الى برىء . فاني اعلم أنا نجعل من امر الضمير  
الانساني اكثر مما نعلم . ومن يدري لعل في ضميرك الحفي  
ندماً على شيء اتيته ثم انسيته ، ولعلك ان استكشفت ان  
تصلحه وتستغفر الله منه ، فثقل هذا الندم الذي اخشى ان  
يكون هو الذي ينغص عليك الحياة . وتركت صاحبي  
حائراً مبهوتاً ثم أنبت بعد أيام أنه يمرض في بعض المستشفيات .  
فلما سألت عن جلية ذلك قص عليّ محدثي عجباً من الأمر .  
فقد كان صديقي هذا البائس من قوم كرام مات أكثرهم  
وبقي أقلهم . وكانت الذين ماتوا رحمهم الله يرتفعون عن  
الصغار ، ويمتنعون على الدنيا ، وتأبى نفوسهم فيما تأبى جحود  
العارف وانكار الجليل . ورثوا ذلك عن آباءهم ، واحبوا ان  
يورثوه أبناءهم ، فحال بينهم وبين ذلك هذا التطور الحديث



الذي غير مقاييس الاشياء وادار اعمال الناس وأقوالهم على  
 المنافع العاجلة والمآرب القريبة ، لا على ما كان يألف آبائنا  
 من رعاية الحق ، وتقدير المعروف . وكان صديقي هذا  
 البائس احرص الناس على ان يشبه الذين سبقوه من قومه  
 في كل ما كانوا يأتون ويدعون من الامر ، ولكن احداث  
 الدهر وخطوب الايام وما تحمل من رغبة ورهبة ، ومن  
 اغراء وتنفير ، كانت أقوى من خلقه وارادته ، فلم يستطع ان  
 يكون خليقاً بالذين سبقوه من قومه ، وانما كان خليقاً بالذين  
 عاصروه من اترابه . كان قومه يستحيون من انفسهم قبل  
 ان يستحيوا من الناس ، وكان هو يستخفي من الناس ولا  
 يستخفي من ضميره ولا من الله وهما معه أينما كان ، فلما قصصت  
 عليه قصة اوسكار وولد كنت كأنما كشفت عن نفسه الغطاء ،  
 فأصبح يتحدث الى امرأته والى خاصته بأن هذا الوجه القبيح  
 الذي كان يراه في المرأة لم يكن وجهه ، فوجهه ما زال  
 جميلاً رائعاً وانما هو مرآة ضميره لان ضميره بشع دميم .

ثم يمضي في حديثه فيقول : لا تنكروا بما اقول لكم  
 شيئاً ، فاني لا ارى هذا الوجه البشع اذا نظرت في المرأة  
 فحسب ، بل انا اراه كلما خلوت الى نفسي . اراه يحمله جسم  
 كجسمي ، واره يجلس اليّ غير بعيد ينظر اليّ شزراً اول  
 الامر ، ثم لا يزال يرفق بي ويظهر الرقة الي حتى اطمن



اليه فيحدثني في صوت هادىء رقيق عن سيئات تقدمتُ بها  
الى الناس فيما مضى من الدهر ، ثم يقول لي في صوت  
هادىء يخيفني أشد الخوف : ليتك لم تفعل فقد كنت اراني  
جميلاً فجعلتني قبيحاً بشعاً ، وكنت اراني سعيداً فجعلتني  
شقيماً بائساً ، فقد احتملت وحدي قبحي وبشاعتي وشقائي  
وبؤسي ، ثم اعياني احتمال هذا الثقل فرأيت ان تشاركني  
في النهوض به ، فسألزمتك منذ الآن كما يلزم الظل صاحبه ،  
وأي غرابة في ان يلزم الضمير صاحبه ؟ وكانت صديقي  
البائس يقول ذلك لاهله وخاصته في صوت غريب يملأ قلوبهم  
خوفاً وإشفاقاً ورحمة وعطفاً ، ثم كان يلح عليهم في ألا  
يخلوا بينه وبين نفسه فلزموه واطالوا البقاء معه . ولكن  
بغضه لظله هذا او لضميره هذا جعل يعظم ويشدد كما ان  
حب ظله وضميره له جعل يعظم ويشدد ايضاً . فقد رأى ضميره في  
المرآة اول الامر ، ثم جعل يراه في الخلوة بعد ذلك ، ثم اصبح يراه  
حين يخلو الى نفسه وحين يحيط به اهله وخاصته ، واذا امره ينتهي به  
الى الجنون الثائر او الى ما يشبهه ، واذا اهله مضطرون الى ان  
يمرضوه في بعض المستشفيات التي تعالج فيها الاعصاب المريضة .  
ليتني لم اكشف لصاحبي عن نفسه الغطاء ... استغفر الله  
ماذا اقول ؟ وهل يزيد الكتاب على ان يكشفوا للناس عن  
نفوسهم الغطاء !

اكتوبر ، ١٩٤٤



## الضمائر المقلقة

يظهر ان في الضمير المصري شيئاً من قلق يحتاج ان  
يعنى به الذين يهمهم ان يكون الضمير المصري راضياً مطمئناً،  
وآمناً مستريحاً. فقلق الضمير مصدر شر كثير أيسره فتور  
العزم ، وكلال الحد ، والتردد بين الاقدام والاحجام حين  
تقتضي ظروف الحياة ان تختار بين الاقدام والاحجام .  
ويكفي ان نلاحظ الفرد ذا الضمير القلق والنفس المضطربة  
لنعلم انه لا يصلح لشيء حتى يردّ إلى ضميره الاستقرار وإلى  
نفسه الاطمئنان ، فكيف إذا كان هذا القلق شائعاً وهذا  
الاضطراب شاملاً ، وكيف إذا أحس الشعب أنه لا يستطيع  
ان يثق بشيء ، ولا ان يركن إلى شيء ، ولا ان يقدم عن  
بصيرة ، ولا ان يحجم عن روية ، ولا ان يحكم على الاشياء  
والاحياء حكماً يصدر عن التدبر والتفكير .  
ما أحب ان أطيل في المقترحات ولا ان أسلك إلى ما



أريد طريقاً ملتوية ، وإنما ألاحظ ان شيئاً من الريب قد  
شغل الناس جميعاً ، فليس من كلمة تقال إلا اعتقد الناس  
ان لها ظاهراً وباطناً ، وان لها معنى قريباً يُتخذ وسيلة إلى  
معنى بعيد ، وغاية يسيرة تخفي وراءها غاية عسيرة . وليس  
من عمل يقدم عليه مقدم الا وله غرض يقصد اليه في العلانية ،  
وغرض آخر يقصد اليه في السر الخفي ، واذن فقد عجز  
الناس عن ان يصدق بعضهم بعضاً ، أو أن يأمن بعضهم الى  
بعض ، فضاعت بينهم الثقة ، وشق عليهم التضامن ، واضطروا  
الى حياة منكرة فيها كثير من الشك ، وكثير من الخوف ،  
وكثير من سوء الظن الذي أوشك ان يصبح أصلاً من أصول  
الحياة ، وقاعدة من قواعد التعامل بين الناس .

وإذا بلغ الشعب هذه المنزلة من القلق كان خليقاً ان  
يتعرض لشر عظيم ، وكان حقاً على الذين يدبرون أمره  
ويقودون الرأي فيه ان يطبّوا لهذا الداء ما وجدوا الى  
الطب سبيلاً . وقد اردت حين هممت بهذا الحديث ان  
اقصد الى شيء من الفكاهة والدعابة ولكن وجدت الامر  
أجل خطراً من الفكاهة والدعابة فقصدت به الى هذا الجد  
الر الذي قد يضيق به الكتاب والقراء في هذه الايام .

لم اكد أنشر الحديث الاول من هذه  
الاحاديث حتى احسست حولي سؤالاً يلقيه بعض الناس الى



بعض ، ويجيب بعضهم بعضاً بما يخطر له ثم يتجه الى السؤال  
فاعرض عنه ، ثم يتجه الى في إلحاح فإلح في الاعراض ،  
واقول لنفسى حديث "نشر بعد ان طال الصمت ، وبعد ان  
كنت منصرفاً الى بعض الاعمال العامة ، فصرفت عنه  
فليس من القريب ان يذهب الناس فيه المذاهب ، وان  
يلتمسوا له ألوان التأويل ، وان يتخذوا منه ثوباً يفصلونه  
على قدّ هذا او ذاك من الذين ينهضون بالاعمال العامة ،  
او يشاركون فيها . ولكنى لم انشر الحديث الثانى حتى  
ازداد السؤال انتشاراً وازداد السائلون إلحاحاً ، وجعل  
الاصدقاء وذوو المعرفة يعرضون لى حين يلقونى بما فهموا  
او بما خيل اليهم انهم فهموا .

ثم امضى فى الكتابة ويمضى الناس فى التساؤل ثم لا  
يقف الأمر عند التساؤل والإلحاح فيه ، وانما يختلف الناس فيما  
بينهم ويفعلون فى الاختلاف ، ويريد بعضهم ان يحتكم الى ،  
ويجد عندي حلاً لهذه الرموز ، وتوضيحاً لهذه الالغاز .  
ويتصل بعضهم بى يسألنى ان اريجه من هذا التعب الذى  
اخطرتة اليه . ويتجاوز بعضهم هذا كله فيكتب الى الرسائل  
ينبئني فيها بما يعلم من حياة فلان وفلان ، ومن خصال فلان  
وفلان ، وبما يظهر فلان للناس ويخفي عليهم ، ويطلب الى  
ان اصدر هذا فى حديث من هذه الاحاديث التى تنشر



في « البلاغ » .

ثم لاحظ ان الامر ليس مقصوراً عليّ ولا على هذه الاحاديث التي اذيعها ، ولكنه يتجاوزني ويتجاوز احاديثي الى قوم آخرين واحاديث اخرى تنشر في الصحف اليومية والأسبوعية ، والى قوم آخرين واحاديث اخرى تجري على سنتهم حين يلقي بعضهم بعضاً . فقد كتب فلان هذه الاسطر في هذه الصحيفة او تلك وهو قد اراد بها إلى هذا الغرض او ذاك ، واراد بها الى ان يسّ فلاناً من قريب او بعيد ، ولمح بها الى موقف فلان في السياسة ، او موقف فلان في الادارة ، او موقف فلان في البيع والشراء . حتى استيقن الناس جميعاً انهم لا يتبادلون الحديث بينهم إلا رمزاً ، وان الصراحة والوضوح والجلاء كل هذه امور قد بعدّ العهد بها حتى نسيت او كادت تنسى .

وليس موقف الناس بما ينشر او يقال باقل تحفظاً واحتياطاً من موقفهم بازاء ما يأتيه الساسة من الاعمال او ما يكون بينهم من التزاور والتواصل ، او ما يكون بينهم من التنافر والتقاطع . ومن الحق ان الامر ليس مقصوراً على رجال السياسة وأشباههم من الذين ينهضون بالاعمال العامة ، ولكنه يتناول ما يكون بينهم من صلات في حياتهم الخاصة . فالزملاء في ديوان من الدواوين او معهد من معاهد التعليم



يشك بعضهم في بعض ، ويسيء بعضهم الظن ببعض ، ويحتاط بعضهم من بعض ، قد تعقدت منافعهم ، وارتبكت مصالحهم ، وقرب الرؤساء بعضهم وابتعدوا بعضهم الآخر ، فساء ظن أولئك هؤلاء ، واحتاط هؤلاء من أولئك ، وارتاب الرئيس بهم جميعاً ، وجرت أحاديثهم حين يتحدثون على الشك والخوف ، وجرت صلاتهم حين يتواصلون على الحيلة والتحفظ ، واصبحت حياتهم شيئاً لا يطاق .

ولست أدري - بل لعلني أدري - ولعل كثيراً من الناس يدرون ما مصدر هذا القلق ، وما أصل هذا الريب . فقد دفعتنا هذه الاعوام المتصلة الى ألوان من الحياة لم نكن نألفها ولا نطمئن اليها . واولها واطهرها هذه الاحكام العرفية التي اقتضتها الحرب والتي استتبعت مراقبة الصحف ، والتي ألقت في روع الناس جميعاً ان أمورهم لا تجري على ما تعودت ان تجري عليه قبل ان تعلن الاحكام العرفية ، وقبل ان تفرض الرقابة على اللسان والاقلام . وما لا شك فيه أن الاحكام العرفية لم تشمل حياتنا كلها ، ولعلها لم تشمل إلا أقلها ، ولكن الناس قد فرضوا فيما بينهم وبين انفسهم انها قد شملت كل شيء . وما لا شك فيه ايضاً ان مراقبة الصحف ان اشتدت على الانباء الخارجية والداخلية فانها لم تكلف الادباء من امرهم شططاً حين ارادوا ان



يعرضوا للادب الخالص او حين ارادوا ان يمسوا الامور العامة مساً رقيقاً . فمن حق الصحف ان تضيق بالرقابة ، ومن حق الناس جميعا ان يضيقوا بها وبالاحكام العرفية ، ولا سيما حين يتصل الخضوع لها والاكتواء بنارها . ولكنها على كل حال لا تكفي لتشيع هذا القلق بين الناس وتملأ نفوسهم شكاً وريباً ، وتجعل سوء الظن أصلاً من أصول الحياة . غير ان الناس لم يخضعوا منذ أعلنت الحرب للاحكام العرفية والرقابة وحدها ، وانما خضعوا للأشياء أخرى لعلها ان تكون أبعد من ذلك اثراً في اشاعة القلق والريب ، خضعوا لحياة الحرب نفسها وما تفرضه من الغموض في أنباء الحرب والسياسة ، وما تقتضيه من هذه الاحاديث المتناقضة التي يكذب بعضها بعضاً والتي تذاع في الراديو كل يوم ، وما تقتضيه من هذه الاشارات الغامضة التي تنشر في الصحف والمجلات حتى تعود الناس ان يسمعوا النبأ فلا يصدقوه ، أو ان يسمعوا النبأ فيستنبطوا منه غير ظاهره وربما استنبطوا منه نقيضه ، وحتى تعلم الناس ان يقرأوا بين السطور وان يسمعوا بين السطور ، إن امكن ان يسمع الناس بين السطور .

فاتصال هذه الحال التي تخلط بين الصدق والكذب ، وتقلب الكذب على الصدق احياناً ، وتذيع المتناقضات في غير انقطاع ، خليق ان يدفع النفوس الى الريب ويعدها لسوء الظن . ثم



خضع الناس بعد ذلك او مع ذلك في حياتهم العامة والخاصة  
لخطوب ثقل . فاهوال الحرب من جهة ، ومصاعب الحياة  
الاقتصادية من جهة اخرى ، والتغيرات السياسية من جهة ثالثة ،  
والبؤس والحرمان اللذان ينتهيان الى الجوع والشقاء في بعض  
الطبقات من جهة رابعة ، كل ذلك خليق ان يعقد منافع الناس  
أشد التعقيد ، وان يقوي الاثر في نفوس الافراد والجماعات ،  
وان يضطر كل واحد من افرادهم وكل جماعة من جماعاتهم  
الى الاحتياط للنفس ، والاستكثار من الخير ، والاستعداد  
للمستقبل ، والتحفظ من الطوارئ ، والتخلص من المشكلات ،  
والنفوذ من الخطوب . فليس غريباً ان يدفع هذا كله الناس  
الى حياة لا تقوم على امن الضائر واطمئنان القلوب ، ولا  
تقوم على الثقة والصراحة ، وانما تقوم على القلق والخوف ، وتقوم  
على الشك والحذر ، ولعلها ان تقوم على الكذب وعلى اخلاق  
اخرى تتصل بالكذب من قريب او بعيد .

فاذا اخفت الى هذا كله حياتنا السياسية الخاصة وما  
يشوبها من هذا العنف الذي يدفع الى التكلف ، ويسوق الى  
سوء الظن ، ويحمل على المبالغة والتكثير ، ويغري بخلق  
الاشاعات واذاعة المنكر من القول ، ويحرص على تشويه  
الحسن وتحسين القبيح ، وإذا اخفت الى هذا وذاك ان  
المثقف المصري محدود الثقافة ، متوسط العلم في اكثر الاحيان ،



وانه من اجل ذلك مستعد للتصديق والتكذيب في غير  
مقاومة أو في مقاومة ضئيلة ، أقول إذا أضفت بعض هذا  
كله إلى بعض استطعت أن تحتق اسباب هذا القلق الذي  
يشمل الضمير المصري في هذه الايام ويوشك أن يدفعه إلى  
خطر عظيم .

والشيء المحقق هو أن هذا التساؤل الذي اشترت اليه في  
أول هذا الحديث ان دل على شيء فانما يدل على ظاهرة  
مؤلة حقاً ، وهي ان رأي الناس قد ساء في الناس . فلا  
تكاد تذكر رجلاً حائز الضمير حتى يحس كثير من الناس  
أنه المعني بهذا الضمير الحائر ، ومصدر ذلك أنه يجد فيما بينه  
وبين نفسه أن ضميره مضطرب في شيء من الحيرة ، وحتى  
يسأل الناس بعضهم بعضاً ألا يمكن ان يكون صاحب  
الضمير الحائر فلاناً او فلاناً لانهم يعتقدون ان فلاناً او  
فلاناً يمكن ان يكونا من اصحاب الضمائر الحائرة . ولا  
تكاد تعرض صورة الرجل الذي يشبه الثعبان أو يشبه الثعلب  
أو يشبه ما شاء الله من هذا الحيوان المقيم في حديقة  
الحيوان حتى يحس كثير من الناس انه هو المعني بهذه  
الصورة ، المراد بهذا الاسم . ومصدر ذلك أنه يجد فيما  
بينه وبين نفسه أن في أخلاقه وخصاله شيئاً من أخلاق  
الثعبان أو من أخلاق الثعلب او من أخلاق ما شاء الله من



الحيوان ، وحتى يخلع القراء من عند انفسهم هذه الصورة  
أو تلك على هذا الرجل أو ذاك لانهم يرون في اخلاقه  
شيئاً من اخلاق الثعلب أو الثعبان .

ومن العسير أن تقنع القراء بأن الكاتب ان عرض  
صورة بعينه فهو لم يرد شخصاً بعينه ، ولعله يكون قد  
كّون صورته هذه من أشخاص كثيرين يأخذ من أخلاق  
كل واحد منهم طرفاً ثم يضيف هذه الاطراف بعضها الى  
بعض فينشئ منها صورة قد تعجب أو لا تعجب . ولكنها  
لا تخلو من عبرة وموعظة ولعلها أن تحمل الناس على ان  
يصلحوا من أمورهم ويخفوا من شرورهم . فمن وجد في نفسه  
شيئاً من أخلاق الثعبان اصلحه وأخفاه فكف شره عن  
الناس قليلاً أو كثيراً ، وكف شر الناس عنه قليلاً أو  
كثيراً . وقل مثل ذلك فيمن يجد في نفسه شيئاً من  
خصال الثعلب أو من خصال العقرب ، أو من خصال  
الذباب .

والله قد خلق الاشياء كلها لتكون موضعاً للعة ، ومصدراً  
للعة ، ووسيلة الى استكشاف الحق والخير والجمال . والله  
عز وجل قد خلق الانسان وعلمه البيان ليكشف الحق  
والخير والجمال ويدل عليها ، وليستكشف الباطل والشر والقبح  
ويرغب عنها . فليكتب الكتاب ، وليقرأ القراء ، وليسأل



السائلون ، وليجب المجيبون فليس بشيء من هذا كله بأس .  
وانما البأس الذي يجب ان نعاون جميعاً على علاجه  
واستئصاله هو هذا القلق الذي شمل الضمير المصري ، والذي  
يوشك ان يدفعه الى اكثر من السؤال والجواب .

١٩٤٥



## فِي الذَّوْقِ

يقال ان الذوق ملاك الحضارة المترفعة ، ويقال من أجل ذلك إنه يوجد ويقوى ويشيع حيث يتاح للحضارة أن ترقى وتترف وتبسط سلطانها على النفوس . ويقال انه من أجل ذلك يوجد في المدن أكثر مما يوجد في القرى ، ويوجد في العواصم أكثر مما يوجد في مدن الأقاليم ، ويوجد في القصور أكثر مما يوجد في الدور ، ويوجد في الدور أكثر مما يوجد في الاكواخ ! يقال هذا ويقال شيء كثير غير هذا حول الذوق ، فالذوق يكون في الأدب والفن ، والذوق يكون في الحياة الاجتماعية اليومية ، والذوق يكون خصلة من خصال الفرد المتترف الممتاز ، ويكون خصلة من خصال الجماعة المثقفة المهذبة ، ويكون خصلة من خصال الشعب الذي عظم حظه من الحضارة وإمعانه فيها . . . ويظهر ان المصريين قد



سبقوا غيرهم من الشعوب الى الحضارة وضروب الترف ،  
فكان حظهم من الذوق عظيمًا ، وقسطهم منه موفورًا . .  
يقول المصري عن المصري اذا أراد أن يمدحه انه صاحب  
ذوق ، ويقول المصري عن المصري اذا أراد أن يمدحه  
أيضاً إنه « رجل ذوق » بالاضافة ، ورجل ذوق بالوصف !  
ويقول المصري عن المصري اذا أراد أن يعيبه إنه قليل  
الذوق ، وعديم الذوق ، ويقول الرجل من أهل القاهرة  
لصاحبه اذا فعل أو همّ أن يفعل شيئاً لا يليق : « استذوق »  
يريد ان يقول له اصطنع الذوق وتجنب ما من شأنه ان  
يغضّ من ذوقك أو من امتيازك في الحضارة المترفّة المهذبة  
التي تتيح للناس أن يعاشروا الناس ، وأن يجدوا في  
معاشرتهم راحة ولذة وسروراً !

ويعرف بعض المعاجم الذوق بأنه ملكة طبيعية تسبق  
التفكير وتعين على تمييز الجيد من الرديء ، والحسن من  
القبیح ، وما يليق بما لا يليق .

ويقول هذا المعجم إن لكل انسان من هذا الذوق  
حظاً ، ولكن هذا الحظ يقوى ويضعف باختلاف ما يكون  
عليه الانسان من ثقافة وحضارة وataraf في العقل والقلب  
والضمير . . ويقال كذلك إن الذوق يتغير بما يصيب  
الحضارة من تطور فيفسد بعد صلاح ، ويقبح بعد حسن ،



ويشيع فساده وقبحه بمقدار ما يصيب الحضارة من  
ضعف وانحطاط !

●  
واكثر ما يفسد الذوق حين يطرأ على الحضارة المستقرة  
المطمئنة التي بعد بها العهد وألفتها النفوس وتوارثتها الأجيال ،  
طارىء عارض عنيف يغير من سيرة الناس في حياتهم المادية  
أولاً ، ثم في حياتهم العقلية بعد ذلك .

فالرجل المترف من أهل القاهرة في أول هذا القرن  
كان قد ورث عن أسرته ألواناً من الأخلاق والعادات  
تأثرت بها سيرته فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين أهله ،  
وفيما بينه وبين الناس . فهو لا يظهر لأهله إلا في لون  
معين من لبسة المتفضل ، وهو لا يتحدث اليهم إلا بالفاظ  
مختارة منتقاة ، ثم هو لا يظهر للناس إلا في زينة أنيقة  
معتدلة قد لاءم بين دقائقها ملاءمة شديدة الاتساق والانسجام .  
وهو لا يتحدث الى الناس إلا بالفاظ عذاب رقيق ، وفي  
صوت معتدل لا يرتفع فيؤذي الآذان ، ولا يسرف في  
الانخفاض فيشوق على النفوس . وهو رفيق رقيق متأنق في  
إشاراته وفي حركاته . وهو حين يخرج من داره الى عمله ،  
أو الى زيارة صديق يتخذ عربته تلك المترفة ، يجرها الجواد  
المترف ، ويسوقها السائق الأنيق !



فإنها تقدم القرن شيئاً ، تغيرت الدنيا وهجمت الحضارة الغربية هجوماً جعل يزداد عنفاً من يوم الى يوم ، ثم بلغ أقصى غايات العنف بعد الحرب العالمية الأولى . فأخذ المترفون من المصريين يتركون ترفهم القديم الأنيق الذي كانوا يعرفونه ويألفونه ويحسنون تنميته والتأنق فيه ، الى الترف الغربي الجديد الذي لم يعرفوه ولم يألفوه ، ولم يتح لهم أن يفتنوا فيه ، وانما أخذوه كما هو واندفعوا فيه غير متحفظين ، فكانوا محدثين ! وقد تغير تصورهم للحياة بتغير ما يحيط بهم من الأداة فاضطربت أحكامهم على الأشياء ، وساء تقديرهم للظروف ، وتغير ذوقهم شيئاً فشيئاً .

وقل مثل هذا بالقياس الى الحياة العقلية . فقد كان المصريون الى أوائل هذا القرن أميل الى المحافظة في ثقافتهم ، يغذون عقولهم بالتراث العربي اكثر مما يغذونها بالتراث الاجنبي . ثم هجمت الثقافة الاجنبية هجوماً لم يكن أقل عنفاً من هجوم الحضارة الاجنبية ، فاضطربت لهجومها العقول ، واختلطت له الأمور ، وتأثرت به الاخلاق ، وتغير به الذوق ، وكانت الموقعة الهائلة بين الأدب القديم ، والأدب الجديد !

ثم كانت الحرب العالمية الثانية فأقبلت معها حضارة مادية



عنيفة . ولم تكذب تنقضي حتى كان كل شيء قد اضطرب في حياة المصريين المادية ، والعقلية ، والحلقية جميعاً . وكان اضطراب الذوق بعد هذا كله ، وبتأثير هذا كله ، شيئاً لا بد منه ولا سبيل الى اتقائه !

وربما كان أخص ما يمتاز به هذا الهجوم الذي غير الحضارة المصرية فغير الذوق المصري تغييراً عنيفاً خطيراً ، أنه تأثر بالعنصر الأمريكي أكثر مما تأثر بالعناصر الأوروبية .. فقد صحننا الحضارة الأوروبية منذ أول القرن الماضي بل منذ أواسط القرن الثامن عشر ، وتأثرنا بمصاحبتها وتغيرت لها أخلاقنا وأذواقنا وحياتنا تغييراً شديداً ، ولكن هذا التغيير تمّ في اعتدال لم يعنف بنا ولم يخرجنا عن أطوارنا بمقدار ما عنف بنا هذا التغيير الطارئ بين الحربين ، ومنذ أثرت الحرب الثانية بنوع خاص ، ومنذ انقضت هذه الحرب الثانية بنوع أخص !

وليس لهذا كله مصدر فيما أظن غير هجوم الحضارة الأمريكية المادية والثقافة الأمريكية اليسيرة التي لا تعرف التعمق ولا التمهيد ولا الاناقة ، والتي تؤثر السرعة والمعرفة الخاطفة . ويمكن أن يقال إننا مدينون لها بهذا الاضطراب الحلقى العنيف الذي ينعم به الجيل الناشئ ، ويشقى به الجيل المنقرض ، وتتعرض به مصر لخطر عظيم !



فاذا رأيت قيم الاشياء تتغير إلى هذا الحد الذي نشهده،  
وإذا رأيت الشباب لا يحفلون بشيء ، ولا يتخرجون من  
شيء ، ولا يتحفظون في قول او عمل ، وإذا رأيت الصحف  
تحوض فيما لم تتعود ان تحوض فيه من قبل ، وعلى نحو  
مخاف لكل ما الفنا من سماحة الخلق ، وسجاجة الطبع ، وصفاء  
النفوس ورقة الأذواق ، فاحمل هذا كله غير متردد ولا  
متهيب على هذه الحضارة الطارئة التي غزتنا بها اميركا ، فكانت  
بعيدة الاثر في حياتنا المادية والاقتصادية والادبية ، ومع ذلك  
تهافت الناس عليها تهافتاً عنيفاً وهم لا يشعرون !



وقد تسألني عما حملني على ان أتحدث اليك في الذوق ،  
وفي معناه ، وفي تطوره وفي فساده ؟ ! فسل نفسك عما  
تقرأ ، وعما ترى ، فستجد في نفسك وستجد في نفس غيرك  
الجواب على هذا السؤال !!

١٩٤٧



## خوف

لست أدري اين قرأت - بل لعلني أعلم اني قرأت في  
فصل طويل أراد به صاحبه تعريف مصر الى اعضاء المؤتمر  
البرلماني الدولي الذين يزورون مصر في هذه الايام - ان  
المصريين ديمقراطيون بالطبع ، وانهم احرار بالطبع كذلك ،  
لا يستطيعون ان يعيشوا الا مستمتعين بالحرية الكريمة ،  
تحت ظل محدود من الديمقراطية السمجة ! وقد يكون هذا  
حقا ، ولكن هناك حقا آخر ، لعله يكون أشد منه ثبوتاً  
ووضوحاً ، وهو ان الانسان يفسد كثيراً من جمال الطبيعة  
ويغير كثيراً من حقائق الاشياء ، تدفعه الى ذلك مصالحه  
العاجلة احياناً ، ويدفعه اليه خطؤه في الحكم والتقدير أحياناً  
أخرى ... واكبر الظن ان الانسان قد حاول وما زال  
يحاول ان يفسد الطبيعة المصرية ويغير بعض الحقائق المصرية .  
فقد يكون المصري ديمقراطياً بطبعه ، ولكن قد يوجد من



المصريين او من غير المصريين من يجد من هذه الديمقراطية  
حداً شديداً ، او يحولها الى ما يناقض الديمقراطية من  
الحصول والاخلاق . وقد يكون المصري مطبوعاً على الحرية ،  
ولكن قد يوجد من المصريين او من غير المصريين من  
يفسد هذا الطبع ويحوّله الى لون من الخنوع والخضوع ليس  
من الحرية في شيء !

وما أريد ان أمضي مع هذا التفكير الى غايته فابحث  
واستقصي ، وانشر على القراء فضلاً في هذه الفلسفة التي  
تصور اثر الانسان المتحضر في افساد الطبيعة الخيرة للناس ،  
فهذا بحث قديم كثر فيه القول ، واشتد حوله الجدل .  
وانما أريد ان أقف عند جماعة محدودة من المصريين يمكن  
ان يحصيهم العد ، وان الفت القراء الى طبيعتهم الديمقراطية  
الحرّة ، والى ما تصبّ عليهم الظروف والاحداث من الفساد  
المتصل الذي يحولها عن أصلها الجميل السمع الى شيء آخر  
بعيد كل البعد عن الساحة والجمال . وهذه الجماعة هي جماعة  
الموظفين . وما أريد ان أسوء الموظفين ولا ان أشق عليهم  
ولا أن أؤذيهم في ذات أنفسهم ، فانا أقرر انهم كغيرهم  
من المصريين : ديمقراطيون بالطبع ، احرار بالطبع ، قد  
فطروا على ما شاء الله من كرم الاخلاق ورقّة الشئائل  
وسماحة القلوب والنفوس ، وانما أريد ان أعذر لهم ، او ان



أعذر عنهم ، او قل اني اريد ان ارثي لهم وأرفق بهم ،  
واطاب الى أصحاب السلطان مها تكن احزابهم ان يشملوهم بشيء  
من العطف والرفق والعناية ، حتى لا تفسد طبيعتهم الديمقراطية ،  
وحق لا تتعرض فطرتهم الحرة الى بعض ما تتعرض له من الشر  
الذي لا يؤذيهم وحدهم وانما يؤذي معهم الناس جميعاً ، ويصبح  
شيئاً بغيضاً يشبه الامراض المعدية التي تتجاوز المرضى الى الاصحاء  
هؤلاء الموظفون معرضون دائماً لسخط أصحاب السلطان  
اذا تورطوا فيما لا يحبون . واصحاب السلطان من الوزراء  
والرؤساء ناس كثيرهم من الناس ، يخطئون ويصيبون ،  
ويسرفون ويقصدون ، ويجورون ويعدلون . والاصل ان  
لهم على الموظفين الذين يعملون معهم حقاً ، هو إنفاذ أمرهم  
في حدود النظم والقانون . فليس الموظف ملكاً لرئيسه يجب  
ان يتصرف وفق هواه ، وليس الموظف خادماً لرئيسه  
ينبغي ان يطيعه الى كل ما يريد ، وليس الموظف موظفاً  
عند وزيره او رئيسه ، وانما هو موظف عند الدولة التي لا  
تمثل الحكومة وحدها وانما تمثل الحكومة والشعب جميعاً ..  
واذن فليس على الموظف ان يميل مع أهواء الوزراء والرؤساء  
ولا ان يطيعهم فيما يخالف النظم والقوانين ، ولا ان يجب  
ما يحبون ومن يحبون ، او يكره ما يكرهون ومن  
يكرهون . وانما الموظف انسان حر يحفظه من الحرية كحفظ



الوزير والرئيس ، ~~ولا~~ يزيد عليه إصبعاً ولا ينقص عنه أنملة .  
والوزير والرئيس موظفان آخر الامر كغيرهما من المرؤوسين  
كلهم خادِم مأجور للدولة . وقد أراد النظام - لان  
المصلحة العامة أرادت - ان يكون بعض هؤلاء الموظفين  
رؤساء يدبرون ويأمرون ، وان يكون بعضهم مرؤوسين  
ينفذون ويطيعون .. يجري هذا كله طبقاً لعقد مقرر نظمه  
الدستور ونظمته القوانين بينهم وبين الدولة لا بينهم وبين  
هذا الفرد او ذاك ، ولا بينهم وبين هذا الحزب او ذاك ،  
ولا بينهم وبين هذه الوزارة او تلك .

هذه كلها أوليات يتعلها الصبية في دروس التربية الوطنية  
ويتعلها الشباب فيما يسمعون من أساتذتهم في المدارس  
الثانوية ومعاهد التعليم العالي ..

ولكن العلم الذي يلقي في الدروس شيء ، والعمل الذي  
تجري عليه الحياة اليومية شيء آخر في مصر .. كما أن  
الحقوق والواجبات التي تقررها النظم والقوانين المكتوبة شيء ،  
والحياة العملية اليومية شيء آخر في مصر .. واني لا ذكر  
يوماً من الايام أشيع فيه ان في مصر أزمة وزارية حادة ،  
وان الوزارة توشك ان تقال أو تستقيل ، وان حزباً آخر  
سينهض باعباء الحكم بعد اقالة الوزارة او استقالتها . شاع  
هذا في الصباح مع الصحف التي تلتقي الناس حين يخرجون .



من دورهم او تقتحم عليهم هذه الدور قبل ان يخرجوا منها . وأقبل الموظفون على مكاتبهم في وزارة من الوزارات لا يتحدثون الا في هذه الاشاعة ، يذكرون الوزارة المضطربة منكربن لها ، ساخطين عليها ، ويذكرون الوزارة المنتظرة مكربن لها راضين عنها كل الرضى . تجري بهذا كله ألسنتهم وتنطق به وجوههم ، فاما قلوبهم وضمائرهم فقلعها عند الله الذي يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ثم ارتفع الضحى ، وكانت هناك غرفة لا يخف حولها ازدحام الزائرين والقاصدين والموظفين لحظةً من نهار ، وأخرى تقع منها غير بعيد لا يزورها الناس الا لماما . فلما ارتفع الضحى من ذلك اليوم فرغت الغرفة الاولى وفرغ ما حولها من القضاء فلم يطرقها طارق ، ولم يلم بها احد واستراح التليفون فيها وراح . وتحول التيار العنيف من الزائرين والقاصدين والموظفين الى الغرفة المجاورة .

وضحك صاحب الغرفة الاولى فيما بينه وبين نفسه رثاء لهؤلاء الناس ، وضحك صاحب الغرفة الثانية فيما بينه وبين نفسه سخرية من هؤلاء الناس . ثم اقبل المساء وحملت الصحف الى الناس ان الوزارة باقية في مناصبها ، وان الازمة قد حُلت أو ارجئت ، فلما كان الغد عاد التيار الى مجراه الاول فازدحم القضاء حول الغرفة الاولى وخلا حول



الغرفة الثانية خلواً خيفاً . وضحك صاحب الغرفة الاولى فيما بينه وبين نفسه ساخراً من هؤلاء الناس ، وضحك صاحب الغرفة الثانية فيما بينه وبين نفسه راثياً لهؤلاء الناس !

وكل وزارة صائرة الى الازمة مها تعمر ، وكل حزب سياسي ذي خطر ناهض باعباء الحكم ذات يوم مها يبعد عن الحكم . فاذا خضع الموظفون لهذا الخوف واصبحوا كالقربة التي تمخض بغير انقطاع ، وتمز هزاً عنيفاً متصلاً في غير راحة ولا اناة ولا سكون فاخلق بهم ان يصرفوا الى غير اعمالهم ، وان يشغلوا بغير ما يؤجرون عليه من العمل ، وان يعنوا بغير ما تفرض عليهم النظم والقوانين ان يعنوا به من الامر !

ذلك الى ان الرجل الديمقراطي بالطبع ، الحر بالفطرة ، لا ينبغي ان يهز ولا يخض لسقوط وزارة ونهوض وزارة اخرى ، ولعزل رئيس وتولية رئيس آخر .. وإثم هذا كله ليس على الموظفين وانما هو على الوزراء والرؤساء الذين يتجاوزون حدودهم ، ويطلبون الى الموظفين بالاشارة الدالة وبالقول الصريح أكثر مما يبيع لهم القانون ان يطلبوا منهم . وفي الامر ما هو أشد من ذلك خطراً وأعظم منه نكراً . فالموظف قد ألف من الوزراء والرؤساء أن يخاصم من يخاصمون ويوالي من يوالون حتى أصبح يرى ذلك واجباً



عليه ، وحتى أصبح يرى رزقه معرضاً للخطر ان خاصم  
ولياً للوزير ، او وفي حُصم من خصوم الوزير . وكذلك  
تفسد الطبيعة الديمقراطية والفترة الحرة .. وكذلك تفسد  
الصلات بين الناس ، ويقوم الكذب والنفاق والقطيعة مقام  
الصدق والاخلاص والتواصل . وكذلك تضع مصالح الناس  
ومنافعهم لأن الموظفين مضطرون الى ان يرعوا في خدمة  
هذه المصالح والمنافع اهواء الوزراء والرؤساء ، لا اصول  
الحق والعدل والقانون . وكذلك تُهدر الكرامة والعزة  
ويصبح الموظف عبداً للوزير وخادماً للرئيس ، لا يملك من  
امر نفسه شيئاً ، قد استقر في قلبه خطأ أو صواباً انه  
موظف عند الوزير والرئيس ، لا عند الدولة التي هي فوق  
الوزير والرئيس .. وكذلك تقوم حياة الموظفين على الخوف  
أن يقطع الرزق ذات صباح او ذات مساء !

✕ ولست اعرف شيئاً يفسد الاخلاق ويملاً الحياة العامة شراً  
ونكراً كالخوف . ولست اعرف شيئاً يصلح الاخلاق ويملاً  
الحياة العامة والخاصة خيراً وعرفاً كالأمن .. فهل من سبيل  
الى ان تُعصم قلوب الموظفين من الخوف ، وتطمئن نفوسهم  
الى الأمن ، لتقوم حياتهم وصلاتهم على ما تقتضيه الطبيعة  
الديمقراطية والفترة الحرة من الصدق والاخلاص والوفاء  
ورعاية الكرامة والارتفاع عما يذل ويهين ؟! ✕



## النفوس المَلَقَّة

هي نفوس المصريين جميعاً لا تستثني منها نفساً مهما يكن صاحبها ، فالغني قلق على ثروته لانه يرى حوله من الاحداث العامة والخاصة ما يذود عن قلبه الامن ، ويصد عن نفسه الطمأنينة ، ويدفعه الى حياة قلق خائفة ، واذا هو يعرف كيف عاش امس ، ويكاد يعرف كيف يعيش اليوم ، ولكنه لا يعرف كيف يعيش غداً او بعد غد ، وليس من الهين على الاغنياء مهما تكن حظوظ قلوبهم من القسوة واللين ان يصبحوا محسدين ، ويمسوا محسدين ، ويجسوا في كل لحظة ان نفوس المحرومين متصلة بنفوسهم هذا الاتصال الخفيف ، الذي يقوم على البغض والحسد وعلى هذه الاماني التي تعبت بقلوب المعوزين . وليس من اليسير على الاغنياء مهما تكن حظوظ قلوبهم من القسوة واللين ، ان يعلموا ان عيون المحرومين ترمقهم حين يغدون وحين يروحون ، وفيها



ما فيها من التطلع والطمع ، ومن التمني والامل ، ومن  
 الحاجة المكبوتة ، والسؤال الذي يعلم ان ليس له جواب .  
 كل ذلك بخيف ، وكل ذلك يقلق ، وكل ذلك ينقص  
 الحياة اثناء اليقظة ، وينقص الاحلام اثناء النوم . فاذا  
 اخفت الى ذلك ان امور الامن المادي ليست على ما يجب  
 الناس ويشتهون ، قدرت هذا القلق الذي يأخذ نفوس  
 الاغنياء من جميع وجوهها ، ويسعى اليها سعياً متصلاً ملجأً  
 لا يريح ولا يستريح . ونفوس الموظفين قلقة لان اجورهم  
 تضيق بأيسر حاجاتهم ، فهم يكدون ويكدحون ، او هم  
 يكسلون ولا يعملون ، ولكنهم اخر الشهر يقبضون مرتبات  
 ايسر ما توصف به انها تسد بعض خلاتهم ، ولكنها لا  
 تستطيع بحال من الاحوال ان تسد خلاتهم كلها ، فهم  
 قلقون قبل ان يخرجوا من دورهم مع الصبح ، لانهم يرون  
 الحاجات الكثيرة التي تريد ان تقضى ، والمادة القليلة التي لا  
 تستطيع ان تقضي هذه الحاجات ، وهم قلقون حين يعودون  
 الى دورهم بعد ان يتقدم النهار ، لانهم يرون الفقر والبؤس  
 والضيق ، والحاجات التي كانت تريد ان تقضى ، فقصرت بها  
 المادة القليلة عن القضاء . وهم ينفقون مع اهلهم ساعات قليلة  
 عابسة ، ثم تثقل عليهم الحياة في الدور فيخرجون الى الاندية  
 والقهوات ، يلتمسون فيها التفرجة والتسلية ، فيظفرون بها



كشراً ما يظفر الناس بالتسلية والتعزية . يلقون رفاقهم  
واتراهم وذوي مودتهم فلا يسمعون منهم الا شكاة متصلة  
مثل شكاتهم وقلقاً مزعجاً مثل قلقهم . فهم يتعزون بالشكاة  
عن الشكاة ، ويتسلون بالقلق المزعج عن القلق المزعج ، وهم  
ينفقون حياتهم في هذا لا يدوقون لأمن النفوس طعماً ، ولا  
يحسون لاطمئنان القلوب روحاً ، وهم من اجل ذلك لا  
يحسنون التفكير في شيء ، ولا يحسنون التقدير لشيء ، ولا  
يحسنون الحكم على شيء ، وهم من اجل ذلك يعملون اعمالاً  
قلقة مقلقة ، كما يشعرون شعوراً قلقاً مقلقاً .

وغير الموظفين من عامة الشعب قلقون لاسباب تشبه  
هذه الاسباب : حاجاتهم كثيرة ، وأيديهم قصيرة ، آمالهم  
بعيدة واسعة ، واعمالهم قريية ضيقة ، فهم ينكرون هذا  
التناقض الذي يكرهون على العيش فيه ، وأي شيء أثقل  
من أن تمتد الآمال الى غير حد ، ومن ان تتقاصر الاعمال  
الى أضيق حد . فاذا أضقت الى هذا كله ان الحياة العامة  
ليست خيراً من الحياة الخاصة ، وان الشعب المصري كان  
وما زال مستيقناً بان من حقه ان يكون شعباً مستقلاً ،  
عزباً كريماً ، وكان وما زال مستيقناً ان استقلاله يفتح  
له ابواباً من النشاط في الحياة العالمية السياسية والثقافية  
والاقتصادية ، وكان وما زال مستيقناً ان من حقه ان



يبسط امله الى ابعد الآمال والغايات ، وان ينشئ ابناءه  
على هذه الحياة الواثقة بحاضرها ، المطمئنة الى مستقبلها ، ثم  
هو ينظر فيرى استقلاله ما زال في درج من ادراج وزارة  
الخارجية البريطانية سجيناً ، قد حيل بينه وبين الحرية التي  
تتيح له ان يعود الى وادي النيل ، فيملأ نفوس اهله  
وقلوبهم بشراً وبهجة واعتباطاً . ثم هو ينظر فيرى القوة  
البريطانية ، ما زالت تأخذه من جميع اقطاره ، تحتل ارضه  
في الشرق والجنوب ، وتربط على حدوده في الغرب ،  
وتأخذ عليه مسالك البحر في الشمال ، فلا يكاد يرى هذا  
كله حتى تمتلئ نفسه قلقاً ، على حاضره ومستقبله ، في  
حياته العامة ، كما امتلأت نفوس افراده قلقاً ، على حاضرم  
ومستقبلهم في حياتهم الخاصة .

فكيف تريد ان يستقبل هذا الشعب ايامه ، راضياً  
مبتهجاً مسروراً ، والشعوب لا تمارس امورها بأنفسها ،  
ولما تمارس امورها بواسطة هؤلاء الناس ، الذين تنتخبهم  
ليكونوا لها شيوخاً ونواباً ، تلقى عليهم اعباء الامور العامة  
ثم يفرغ افرادها لامورهم الخاصة ، حتى يحىء موعد  
الانتخاب . وهي تمارس امورها العامة هؤلاء الناس الذين  
يتولون فيها الحكم ، نائبين عن البرلمان ، مسؤولين امامه  
يؤدون اليه الحساب عن كل ما يأتون وما يدعون . فاذا



نظر الشعب فرأى شيوخه ونوابه ووزراءه ، لا يحملون  
الاعباء كما كان ينبغي ان يحملوها ، ولا يصرفون الامور  
كما كان ينبغي ان يصرفوها ، وانما تثقل عليهم الاعباء فلا  
يستطيعون أن ينهضوا ، وتنتشر عليهم الامور فلا يستطيعون  
أن يتصرفوا ، وتعجبهم مع ذلك نفوسهم فلا يستطيعون ان  
يتخلوا عن مناصبهم ومراكزهم ~~مروان~~ يظنون جائين على  
صدر الشعب كما يحجم الكابوس الثقيل الطويل . ٣٠

اذا نظر الشعب فرأى هذا ورأى انه لا يستطيع ان  
يغير من هذا قليلاً ولا كثيراً ، تسلط القلق عليه ، فافسد  
امره كله افساداً منكراً .

فكيف اذا نظر الشعب فرأى الفساد يحيط بمرافقه  
كلها ، ويتغلغل فيها كلها ، ويجول بينها وبين ان تنتج له  
بعض ما كان ينتظر منها ، فضلاً عن ان تخرجه من الضعف  
الى القوة ، ومن الانحطاط الى الرقي ، ومن الظلمة  
الى النور .

تحدث الى من شئت من المصريين ، واختره من اي  
طبقة شئت ، وتحدث معه في اي موضوع شئت ، فلن  
تسمع منه الا حديث القلق الحظر ، لا على حياته الخاصة ،  
بل على كل شيء . بل أنا اذهب الى ابعد من هذا ، وأزعم  
انك لن تستطيع ان تتحدث الى المصريين مهما يكونوا ،



ومهما تكن طبقتهم ، ومهما يكن الموضوع الذي تتحدث اليهم فيه ، وقد برأت نفسك من القلق ، ورددتها الى الامن ، وجعلتها قادرة على ان تبحث وتستقصي غير متأثرة بالقلق العام ، ولا مشاركة فيه ، لن تستطيع ذلك مهما تكن ، ومهما تكن طبقتك ، لانك قلق كغيرك من المصريين . فانت كهؤلاء الموظفين الذين ذكرتهم آنفاً تتعزى عن قلقك بقلق مواطنيك . وانا حين املي هذا الحديث ، لم آخذ في إملائه الا وانا اجد من القلق مثل ما يجد غيري من المصريين ، أو اكثر مما يجد غيري من المصريين . وما اعلم اني صورت قط حياة المصريين تصويراً صادقاً كما صورها في هذا الحديث ، فهي حياة قد تغفل القلق فيها ، حتى اصبحت كلها قلقاً . بقي ان نسأل ولن نجد من يجب عن هذا السؤال ، لمصلحة من يفرض هذا القلق العام على الشعب المصري ؟ ! !

اما المصريون انفسهم ، فلن يفيدوا منه الا شراً ، واما الانكليز وغير الانكليز من الاجانب الطامعين الذين يتربصون بنا الدوائر فليس انفع لهم ولا احب اليهم من ان نفقد صوابنا ، ونضل اعصابنا ، ونعجز عن تدبير امورنا !! وسؤال آخر يوجه الى الحكومة والى البرلمان ايها خير : ان يظل الوزراء في مناصبهم ، دون ان يصنعوا شيئاً ،



وان يختلف النواب الى مجلسهم ، دون ان يصنعوا شيئاً ،  
ام ان يعاد النظر في امرنا كله لعلمنا ان نظمنا بعد قلق  
وان نأمن بعد خوف ؟ !

وانا بعد هذا كله ، اذن بالوزراء والنواب على ان  
تدفعهم الاثره الى ان يقولوا كما قال قوم من قبلهم ،  
فهلكوا واهلكوا : لنعش نحن وليأت من بعدنا الطوفان !

١٩٤٨



## الوسائل والغايات

نستعير هذا العنوان من الكاتب الانكليزي المعروف ألدوس هكسلي ، ولكننا لا نستعيره ، لبحث عن المشكلات العليا التي بحث عنها في كتابه المشهور ، وإنما نستعيره لبحث عن مشكلات يسيرة متواضعة ، تلائم حياتنا اليسيرة المتواضعة ، فقد خلقت مصر فيما يظهر لتنهض بجلائل الأعمال وعظائم الأمور ، ودل تاريخها كله على انها قد يُسّرت لما خُلقت له فنهضت بجلائل الاعمال وعظائم الأمور ، في عصورها القديمة ، والمتوسطة ، ولكنها في هذا العصر الحديث — او بعبارة أدق منذ كان الاحتلال البريطاني — قد أكرهت على التواضع والتضاؤل والاكتفاء بهذه الحياة اليسيرة الضئيلة ، التي لا يأكل الانسان فيها ويشرب وينام ويستيقظ ليعيش ثم ليأتي في حياته بما ينفعه وينفع الناس ، وإنما يعيش الانسان فيها ليأكل ويشرب وينام ويستيقظ ، ثم لا يزيد



على ذلك شيئاً ، ولا يأتي من الأعمال بما ينفع او يفيد !  
نستعير اذن هذا العنوان الخطير من الكتائب الانكليزي  
العظيم لبحث متواضع يسير ضئيل ، كحياتنا المتواضعة  
اليسيرة الضئيلة .. وأول ما نلاحظه في هذا البحث الذي لا خطر  
له ولا قيمة - والذي نرجو مع ذلك ان يقرأه الناس ولو  
نياماً كما يقدمون على كل شيء في هذه الايام وهم نيام  
كالايقظ او ايتاظ كالنيام - ان نفس الامة المصرية مريضة  
منذ كان الاحتلال البريطاني ، بمرض يفسد عليها حياتها كلها ،  
ولن تستقل الحياة الحسنة المنتجة إلا إذا برئت من هذا المرض ،  
وهو الاشتغال بالوسائل عن الغايات ، وبالظواهر عن الحقائق .  
تلاحظ آيات هذا المرض في سيرتها كلها ، سواء منها ما  
يتصل بحياتها العامة وما يتصل بحياتها الخاصة ، وسواء منها  
ما يتصل بالجد الذي يُقصد به إلى الانتاج وما يتصل بالترفيه  
الذي يقصد به إلى الراحة والاستجمام !

فالمصري كما قدمت لا يأكل ليعيش ، وانما يعيش ليأكل .  
وهو كذلك لا يستريح لينتج ، وانما ينتج ليستريح ، إن اتبح  
له شيء من انتاج . وهو لا يتعلم ليتنفع بعلمه وينفع الناس ،  
ولا يتخذ المنصب وسيلة إلى هذا النفع ، وانما يتعلم ليجد  
المنصب ، ويجد المنصب ليقبض المرتب آخر الشهر ، ويقبض  
المرتب ليعول اهله كما يستطيع أولاً ، ثم ليختلف الى



الاندية والقهوات بعد ذلك ، فيخوض من لغو الحديث  
وسخف القول فيما شاء الله أن يخوض فيه !

●  
وحياته العامة كحياته الخاصة قد اصبحت بهذا العرض  
من أعراض المرض ، فلزمها في كل فروعها ! وقد يكون  
ما يضحك ويسلي - ان كان في الشر ما يضحك ويسلي -  
ان تلاحظ ان مصدر هذا المرض في حياتنا العامة خطأ  
يسير في الحكم والتقدير . . فقد قامت النهضة المصرية  
الحديثة كلها على فكرة خطيرة خضبة ، هي ان مصر قد  
اضطرت أيام الترك العثمانيين إلى الركود والجمود ، ومضت  
اوربا في طريقها الى الرقي حتى سادت العالم وسيطرت  
عليه ، ففكر زعماء النهضة منذ أول القرن الماضي في ان  
اول ما يجب على مصر هو النشاط الذي يتيح لها ان تدرك  
اوربا ، وان تأخذ بأسباب الحضارة كما أخذت بها ، وتسعى  
الى الرقي كما سعت اليه . فكان التشبه بأوربا في اول  
النهضة وفي أثنائها أيام محمد علي واسماعيل وسيلة لا  
غاية . لم يفكر محمد علي واعوانه ، ولم يفكر اسماعيل  
ومشيوه في ان تكون مصر كأوربا لأن التشبه بأوربا غاية  
من الغايات التي تقصد لنفسها ، وإنما فكر محمد علي واسماعيل  
واعوانها ومشيوهما في ان اوربا قد غيرت من حياة



القرن الوسطى ، فأتيح لها رقي في النظم الاجتماعية والسياسية كفل لشعبها حرية بعد استعباد ، وعدلاً بعد جور ، واستعلاء في الأرض بعد ان كانت مستضعفة متهاكمة ، فاراد محمد علي واسماعيل واعوانها ان تسترد مصر حرية بعد استعباد ، وعدلاً بعد جور ، ومساواة بعد تفاوت ، وعزة بعد ذلة .

ولكن هذه الوسيلة لم تلبث ان اصبحت غاية في نفوس كثير من المصريين ثم في نفوس أكثر المصريين ، ثم في نفوس المصريين جميعاً إلا أفراداً قليلاً يمكن ان يبلغهم الاحصاء ! فليس المهم الآن هو ان يتحقق في مصر مثلاً تحقق في أوروبا من العدل الاجتماعي والسياسي ، وإنما المهم هو ان توجد في مصر النظم والادوات التي اتخذتها أوروبا وسيلة الى تحقيق العدل السياسي والاجتماعي ، سواء أكان لهذه النظم والادوات من الانتاج مثلاً كان لها في أوروبا أم لم يكن !

في أوروبا وزارات منظمة فيجب أن تكون في مصر وزارات منظمة لتصبح مصر كأوروبا ، سواء أعملت الوزارات المصرية كما تعمل الوزارات الأوروبية ، أم اكتفت بوجودها ليعرف العالم أن مصر ليست أقل من أوروبا تقدماً ولا رقياً . وفي أوروبا دساتير مكتوبة تنظم ما للشعب من حقوق



وما عليه من واجبات فيجب ان يكون لمصر دستور  
مكتوب ، ينظم ما للمصريين من حقوق وما عليهم من  
واجبات . وليس ضرورياً ان ينفذ الدستور في مصر على  
وجهه ولا ان تحتزم الحريات التي يكفلها للناس ، ولا ان  
تجري الحياة البرلمانية نقيّة من كل شائبة ، مبرأة من كل عيب ،  
ولا ان يذهب الشعب الى حيث ينتخب ممثليه حراً آمناً  
على ضميره من ان يعيث به الترهيب او التهيب ، ولا ان  
يؤدي النواب والشيوخ واجباتهم في مراقبة الحكومة ومحاسبتها  
احراراً آمنين على ضمائرهم ومصالحهم القريبة والبعيدة ، ولا  
ان تقف الوزارة امام البرلمان موقف المسئول عن اعماله  
بالفعل ، ولا ان يثق البرلمان بالوزارة فتبقى ويسخط عليها  
فتقول ! ليس شيء من هذا كله ضرورياً وإنما الضروري  
الذي لا يصح الاغضاء عنه ولا التقصير فيه هو ان يكون  
لمصر دستور مكتوب كما ان لكل بلد راقٍ في اوربا  
دستوراً مكتوباً !

وقد يكون من الظريف ان تلاحظ أننا حين نتمدح  
بالدستور لا نتمدح بانه يمتعنا بالحرية والعدل والمساواة حقاً ،  
وإنما نتمدح بأنه كحدث الدساتير الأوروبية . أمرنا في الدستور  
كامرنا في الأزياء وفي أزياء السيدات بنوع خاص ، لا ينبغي



ان يبعد بها العهد وإنما ينبغي ان تأتي من أشهر دور البدع  
في باريس ، او ان تكون صورة طبق الأصل لما تنتجه  
أشهر دور البدع في باريس !

والأزياء التي تأتي من باريس تكلف الذين يشترونها ثمناً  
غالياً فيجب ان يكلفنا الدستور الذي هو كحدث الدساتير  
الاوربية ثمناً غالياً أيضاً . ولست أذكر نفقات الانتخاب ولا  
المكافآت البرلمانية ولا المتببات التي يتقاضاها الموظفون في  
البرلمان ، وإنما أذكر المرافق المبهمة ، والمنافع المضعفة ،  
والأخلاق التي اشتمل عليها الفساد ! فهذه هي الاثمان التي  
يجب ان نؤديها ليكون لنا دستور مكتوب كحدث الدساتير  
المكتوبة في اوربا . ولكل بلد من البلاد الراقية جيش  
منظم على أحدث طراز فيجب ان يكون لنا جيش منظم  
على أحدث طراز ، تنفق عليه الملايين « المملينة » إن أجاز  
المجمع اللغوي هذا التعبير ! وليس ضروريا ان يكون هذا  
الجيش او لا يكون قادراً على حماية مصر من المغيرين ،  
بل ليس هناك بأس من ان يحتفظ هذا الجيش بكبريائه  
ومتلىء قلوبنا نحن بالكبرياء لأن لنا جيشاً منظماً على أحسن  
طراز في نفس الوقت الذي يحتل فيه مصر جيش أجنبي  
منظم كذلك على احسن طراز !.. ومن يدري ؟ لعل  
هذه ميزة لمصر ، فليس في أرضها جيش واحد وإنما جيشان



كلاهما منظم على أحدث طراز !

وفي كل بلد من البلاد الراقية وزارة للتعليم ، فيجب ان تكون لنا وزارة للتعليم . وقد تلاحظ أن الجاهلين في مصر ما زالوا هم الكثرة الكثيرة ، وأن المتعلمين مازلوا هم القلة القليلة . ولكن هذا كله ليس ذا خطر ، فوزارة التعليم لا يراد منها إزالة الجهل ونشر التعليم ، كما أن وزارة الصحة لا يراد منها إزالة المرض ونشر الصحة ، وكما أن وزارة الشؤون الاجتماعية لا يراد منها إزالة الشقاء وإشاعة الثراء ، وإنما الذي يراد من هذه الوزارات ومن غير هذه الوزارات ، كالذي يراد من الدستور ومن كل نظمنا الحديثة هو أن توجد لنستطيع أن نقول ، وقد رفعنا الرؤوس وشمخنا بالأنوف ونظرنا الى السماء وأبيننا أن ننظر الى الأرض : « إن مصر بلد حديث ، فيه كل النظم التي تستمتع بها البلاد الحديثة الراقية ! »

•  
+ وويل لنا إن نظرنا إلى الأرض فقد نرى على الأرض إن نظرنا إليها شعباً جاهلاً مريضاً فقيراً ، لا يوجد في أوروبا ولا في غير أوروبا من البلاد الراقية المتحضرة ! فلننظر إلى السماء ، وإلى السماء وحدها ، ولنكتف بالوسائل ولنتجنب الغايات .  
K



هذه هي العلة التي تفسد على مصر حياتها كلها في  
هذه الأيام . . !

فالذين يريدون الإصلاح ويلتمسون اليه الوسائل ، والذين  
يختصمون في تعديل الدستور ، والذين يريدون تقويم الاداة  
الحكومية ، والذين ينفخون في القرب المقطوعة ، وينقشون  
على صفحات النيل ، ويريدون ان يقرأوا ما ينقشون ، كل  
هؤلاء خليقون ان يراجعوا أنفسهم ، وان يفكروا في ان لا  
سبيل إلى الإصلاح حتى يقرّ في نفوس المصريين عامة ، وفي  
نفوس القادة والسياسة خاصة ، ان الاستقلال والدستور ونظم  
الحكم والوزارات والمصالح .. كل هذه وسائل لا تقصد  
لنفسها ، وانما تُتخذ أدواتٍ لشيء آخر هو الذي يجب ان  
نفكر فيه ، ونحرص عليه ، وهو سعادة الشعب ، او على  
أقل تقدير تخفيف ما يلقي الشعب من الشقاء !

أمن الممكن ان نقر في نفوس المصريين ان من الحق  
عليهم لأنفسهم ولتاريخهم ول مستقبل وطنهم أن ينظروا إلى  
الوسائل على أنها وسائل لا على أنها غايات ؟ !  
مسألة فيها نظر .. !

١٩٤٧



## بسم الله

تلقاني مشرق الوجه ، باسم الثغر ، سمح النفس ، رقيق  
الشمائل ، عذب الحديث . ولم يدع لي فرصة "تسمح" بسؤاله ،  
او الإدلاء اليه بما كنت اريد ، وانما مضى في التأهيل  
والتسهيل والترحيب ، حتى أغرقني ، واغرق من كان معي  
من الرفاق ، في بحر من التحيات لا ساحل له . وكانت  
الساعة ساعة الشاي ، واذا هو يضرب يداً بيد ، فيقبل  
الخدم من كل وجه ، فيلقي الامر هنا وهناك ، ويتلقى منه  
الامر هذا الحادم او ذاك ، ثم يعود الينا مضيئاً تحية الى  
تحية ، مردفاً ترحيباً بترحيب ، كأنه كان لي صديقاً حميماً  
قد بعد العهد بينه وبينني ، فهو سعيد باللقاء المفاجيء بعد  
الفراق الطويل الاليم .

وانا اسمع لهذا الحديث المتصل في ذهول ، واتلقى هذه  
التحيات المترادفة في وجوم ، فلم اكن اتيت هذا الرجل



الكريم قط ، ولم قد اكن سمعت به قبل ذلك اليوم قط .  
وانما كنت رجلاً مصطافاً قد أقبل بأهله يلتبس شيئاً من  
الراحة والدعة واعتدال الجو في لبنان ، بعد ان انهكه  
العمل ، واحرقه القيظ ، وثقلت عليه الحياة في مصر X  
وكانت الطريق الى اوروبا مقطوعة ، قطعتها الحرب ، وكانت  
الحياة في الاسكندرية على اعتدال جوها مضنية مشقية لا  
تعفي من عمل ، ولا تريخ من عناء ، ولا تتيح هذا التغيير  
الذي نحتاج اليه بعد ان نعمل عملاً مضنياً ثقيلاً مختلفاً عاماً  
كاملاً . فلم يكن بد من التماس الراحة في لبنان .

وقصدنا الى لبنان حين تقدم فصل الصيف ، وازدحت  
الفنادق بالمصطافين حتى استعان اصحابها اهل القرى ، يضيفون  
عندهم من لا يجدون له مكاناً في فنادقهم . وكنت قد  
سمعت بهذا كله قبل ان اعبر الصحراء الى فلسطين ،  
واستوتقت من هذا كله حين بلغت القدس واقمت فيها اياماً .  
ولكن مع ذلك مضيت الى لبنان ، فلم يكن بد من  
المضي اليه ، ومضيت الى هذه القرية بعينها لكثرة ما حدثني  
الناس عنها ، والى هذا الفندق بعينه لانه كان اضخم فنادق  
القرية بناءً ، وارجحها فناءً ، واكثرها حجرات وغرفات ،  
واجدرها ان يؤوي من يطرقه بعد ان تقدم الصيف . فلا  
اكاد ابلغه حتى يلتقاني صاحبه بهذا السيل المتدفق من التحية



والتكريم ، فيدهشني ما القى من ذلك ، واثبت لهذا  
 السيل ما وجدت الى الثبات سيلاً ، ثم انتهز فرصة هدا  
 فيها صاحبي شيئاً من هدوء كأنه اراد ان يتنفس ويبلغ  
 ريقه ، بعد ان اسرف في العدو ، فأسأله : اتظن ان في  
 وسعك ان تسكننا في هذا الفندق ؟ وكاننا مَسَسْتُ بهذا  
 السؤال محرراً كهربائياً ، فلا اكاد افرغ من القاءه حتى  
 يندفع صاحبي في حديث آخر عذب متصل كانه السيل ، فما  
 حاجتي الى الفندق التمس فيه الحجرات والغرفات ، ولي في  
 القلوب ما شاء الله من المساكن ، أثبوا منها حيث اشاء ،  
 وانتقل بينها كما يتنقل الطائر الغرد على الاغصان في الحدائق  
 والجنات . قلت لصاحبي وقد رضيت كل الرضى عن هذا  
 الشعور ، واشققت كل الاشفاق ان يكون سراياً يحسبه  
 الظمان ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد عنده  
 الليل لا يدري اين يقضيه ، قلت لصاحبي : لقد شملتني بكرمك ،  
 وغمرتني بلطفك ، واني لسعيد بسكنى القلوب . ولكنك ترى  
 أن القلوب لا تغني عن الحجرات والغرفات شيئاً ، وان الذين  
 احتملوا مشقة السفر منذ اشرقت الشمس الى ان كادت تجنح الى  
 الغروب مصوبين ومصعدين ، تمخضهم السيارة مخض القرب ،  
 احوج الى غرفة يتخففون فيها من عناء السفر ، والى سرير  
 يلقون عليه ثقل التعب منهم الى قلوب يجدون فيها الحب



والود والبر والحنان . فاذا اجتمعت لهم سكنى القلوب  
وسكنى الغرفات ، كانوا اسعد الناس سعادة وانعمهم نعيماً...  
قال صاحبي ، وقد اخذه ضحك عريض عميق : فانتم اذن  
اسعد الناس سعادة وانعمهم نعيماً ، لانكم تسكنون القلوب دائماً  
وستسكنون الغرفات متى اصبتم شيئاً من اكواب الشاي  
هذه التي يسعى اليكم بها الخدم .

هنالك اطمأن قلبي ، ورضيت نفسي ، وعرفت اني لن  
اطوف في القرى ، وانا لن ننفق الليل بالعراء ، فاقبلت  
على ما قدم الي من طعام وشراب مغتبطاً مبتهجاً ، واصبت  
منها ما شاء الله ان اصيب .

✱ قال صاحب الفندق مبتسماً في حديثه الشعري العذب :  
ايها احب اليك : ان تسمع صمت الطبيعة ام ان تسمع  
ضجيجها وعجيجها ؟ قلت متضحكاً في شيء خفي من الوجل :  
فان هذا موضوع خطير خصب يحسن ان نرجى الخوض  
فيه الى الغد ، بعد ان اكون قد اخذت من الراحة  
بنصيب . قال وقد اغرق في الضحك : هيهات ياسيدي ،  
فأنك مضطر الى ان تجيب على هذا السؤال لاعرف اين  
اترك ، والى اي نوع من غرفات هذا الفندق يجب ان  
اويك . فان غرفاتنا يطل بعضها على جهة البحر فلا يسمع  
الساكن فيها الا صمت الطبيعة الهادئة المطمئنة ، يرى البحر



من بعيد ينسبط امامه الى غير حد ، ولكنه لا يسمع له  
هديراً ولا زئيراً ، وانما ينعم بمنظره الرائع ، ونسيمه البليل  
العليل . وبعض غرفتنا يطل على هذه الجنة المنبسطة التي  
ترتفع اشجارها العتيقة في السماء ، وفي هذه الجنة من صرير  
الجنادب ما يشق على السمع اول الامر ، ولا يتيح للناس  
ان يسمع بعضهم حديث بعض الا في شيء من الجهد  
والعناء . فإين تريد ان تنزل ؟ واين تحب ان تقيم ؟ تؤثر  
صمت الطبيعة وهدوءها والاشراف على البحر والجبل جميعاً  
ام تؤثر لغط الطبيعة وصخبها والاشراف على الزهر والشجر ؟  
قلت فإني متعب مكدود من اللفظ والصخب ، فالراحة  
احب الي ، والمهدوء آثر عندي . قال : لا بأس ، ومع  
ذلك فينبغي ان تزوروا الغرفات الصامتة والغرفات الصاخبة ،  
وان تختاروا بعد التجربة والممارسة . قلت : ذاك اليك ،  
وهؤلاء رفاقي طوّف بهم في الغرفات والحجرات كما تشاء ،  
وانا راض بما يختارون .

ومضى ومضى معه الرفاق فغابوا عني ساعة وجدت فيها  
شيئاً غير قليل من الراحة ، وفكرت في اثنائها تفكيراً  
يمازجه الاشفاق والرضى في صاحب هذا الفندق الذي يحب  
الحديث ولا يكاد يتحدث الا شعراً . ولكن لم ألبث ان  
وجدت الطمانينة ، فهذا الرجل مشغول بفندقه وضيفه ،



ولن يفرغ لي من دون هؤلاء الضيف الذين يزدحم بهم  
الفندق ، والذين لا تنقضي حاجتهم ، والذين لا يجدون ما  
يعملون فهم في حاجة الى ان يقولوا ويسمعوا . ثم اقبل  
علي ومعه الرفاق ينبئونني بأني سأوي الى غرفة صامتة اذا  
كان الليل ، واذا احتجت الى الراحة اثناء النهار ، وسأنفق  
اكثر النهار في جنة الفندق ، أتبوأ منها حيث اشاء فهي  
واسعة فسيحة ظليلة مختلفة ، فيها الاماكن التي تجمع من  
سكان الفندق والقرية طلاب الحديث واللعب والمنادمة ،  
وفيه الاماكن التي يأوي اليها محبو العزلة والراغب ان  
يفرغ لنفسه أو لكتابه ، او لما احب من عمل ، وفيها  
اماكن الرياضة للاعب التنس وغير التنس من هذه الالعب  
التي يحبها الشباب وكثير من الشيوخ . وهم ان يمضي في  
تفصيل جنته الى ابعد من هذا ، لولا اني نهضت وقطعت  
حديثه قائلاً : الخيرة اذن فيما اخترتم ، فلنمض الى غرفتنا  
الصامتة لتتخفف من اثقال السفر ، ولنتهيأ لساعة العشاء .

وانفقت في هذا الفندق شهراً وبعض شهر ، ناعماً  
بالراحة المريحة والهدوء الذي يملأ القلب رضى ، والنفس  
مرحاً ، والعقل نشاطاً ، عاكفاً على القراءة والاملاء ، فاذا  
ضقت بالقراءة والاملاء ، اخذت في الحديث مع الرفاق  
والزائرين ، فاذا رغبت في شيء من الشعر الحلي دعوت



صاحب الفندق الى مكان صامت ، وتركته يتحدث الى  
بما شاء من الوان الحديث . واذا هو يتحدثني في شؤون  
لبنان على اختلافها ، وينشدني في هذه الشؤون شعراً عذباً  
طليّ اللفظ والمعنى جميعاً ، في لهجة لبنانية . وربما اعجبني  
المقطوعة من هذا الشعر فاستعيدها ، واومى الى صاحبي  
فيكتبها لاحتلها معي الى مصر ، ولاعود اليها من حين  
الى حين .

و كنت اظن اول الامر ان صاحب الفندق هذا شخص  
نادر في كرمه وشعره وروايته ووجهه للحديث ، ولكني لم  
اكد اعرف اللبنانيين واتحدث اليهم ، واسمع منهم على  
اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، حتى استيقنت ان الكرم فيهم  
خلق قد فطروا عليه ، وان الشعر غريزة قد اتاحت  
لكثيرين منهم ، بعضهم يستغلها فيحسن الشعر في لهجته  
اللبنانية ، او في اللهجة الفصحى ، وبعضهم لا يكاد يحفل بها  
فتشيع في حياته ، واذا هو شاعر على غير ارادة منه في  
حسن مرهف ، وذوق مترف ، وطبيعة مصفاة ، وما اظن  
احداً يجادلني في ان اللبناني هو اشد الشرقيين حباً للطبيعة ،  
وكلفاً بها ، وتذوقاً لمحاسنها ، وقدرة على تصويرها .

قل ان سحر لبنان هو مصدر هذا المزاج الخاص او  
علل هذا المزاج بما شئت ولكن ، امتياز اللبناني في دقة



الحس ، ورقة الشعور ، وترف الذوق شيء ليس فيه شك .  
تلمس ذلك حين تلقى الرجل الساذج من اهل لبنان في  
داره اليسيرة الساذجة ، فلا تحسّ فقراً ولا حاجة ، ولا  
ضيقةً ولا املاقاً ، وانما تحس تأثقاً وعناية ، ولا تشك في  
ان الذوق قد عمل في ترتيب هذه الدار وتنسيقها ، حتى  
اصبحت تصور الرضى والامن والدعة والاطمئنان الى العيش  
والابتسام للحياة .

وان انس فلن انسى يوماً ازمعنا فيه ان نتروض في  
لبنان ، فلم نكد نرفع ايدينا من طعام الغداء حتى انحدرت  
بنا السيارة الى بيروت ، ثم صعدت بنا الى عاليه ثم مضت  
مصعّدة ومصوّبة ، ونحن نقفها هنا وهناك ويامن بها مرة ،  
و**نياسر** بها مرة اخرى ، حتى اذا اقبل الاصيل كنا قد  
بلغنا شتوره ، وقد اخذ منا الجوع والظمأ لكثرة ما صعدنا  
وما صوّبنا ، ويامنا و**ياسرنا** ، في هذا الهواء البارد الذي  
كان يذكرنا بقول المتنبي :

٧ وشعاب لبنانٍ وكيف بقطعها

وهو الشتاء وصيفنّ شتاء ٨

فلما بلغنا شتورة مجهودين مكدودين جوعاً ظمأ اسرعنا  
الى فندقها الاصيل ، فبتلقانا صاحبه بما تعود اللبنانيون ان  
يتلقوا به الضيف من التأهيل والتسهيل والترحيب ، ويسعى



ينأ الى غزقة الطعام ، وهناك يقدم الينا ما شاء الله من  
 طعام مختلفة الوانه ، وفاكهة مختلفة فنونها ، وشاي لم اشرب  
 مثله قط جودة نوع ودقة صنع . وكان معي صبية جياة  
 ظماء ، خلى بينهم وبين الطعام والشراب ، فارسلوا انفسهم  
 على سيجتها ، واندفعوا يأكلون ويشربون لا يلوون على  
 شيء ، وانا احضهم واشجعهم ، وأمهم توصيهم بالرفق والالانة  
 وتحثهم على القصد والاعتدال وهم يسمعون لي اكثر مما  
 يسمعون لأمرهم ، يغريهم بذلك جودة ما بين ايديهم ،  
 وصاحب الفندق يذهب ويجيء ، يلقي الامر هنا وهناك ،  
 ويحتفي بهؤلاء المندفعين في الطعام والشراب ، حتى اذا  
 اصبنا من هذا كله حاجتنا وفوق حاجتنا ، وهمنا ان  
 ننصرف ، وطلب صاحبي الحساب الى احد الخدم ، قال الخادم  
 متبسماً : هيات ، لا حساب انما انتم ضيف صاحب الفندق .  
 ونحن نلح ونلح ، والخدم يلحون في الالباء ، حتى اضطرت  
 الى ان اسعى الى صاحب الفندق خجلاً مستخدنيا لكثرة ما  
 اسرفنا على انفسنا وعلى مضيقتنا . كنا نظن اننا سألحون  
 نشترى حاجتنا من احد الفنادق ، ولا نستشير في ذلك الا  
 طاعتنا على الاكل والشرب ، وقدرتنا على اداء الثمن .  
 فاذا نحن ضيف قد اسرفنا على من ضيقتنا ، فانا حائر بين  
 الشكر والاعتذار ، وصاحب الفندق مندفع في تحيته



واغتباطه بنا قد مررنا به ، ونزلنا عليه ، واصبنا من  
طعامه وشرابه ، ولولا امتناعنا والحاحنا في الامتناع لما  
صدرنا عنه وايدينا فارغة من بعض ما كان عنده من  
الطيبات .

كذلك انفقت تلك الاجازة في لبنان ، فاي غرابة في  
ان اعود الى لبنان كلما اتيت لي العودة اليه : حياة  
ناعمة باسمة ، وقوم كرام في غير جهد ولا تكلف ، وجو  
معتدل يعفيك من القيظ ، ولا يعرضك لما تتعرض له اذا  
عبرت البحر الى اوروبا من المطر المنهمر ، والسماء المظلمة ،  
والجو العابس بين حين وحين .

واشهد ما تركت لبنان قط الا تردد في نفسي ، وربما  
تردد على لساني هذان البيتان :

فقا ودعا نجداً ومن حلّ بالحمى

وقلّ لنجد عندنا ان يودّعنا

بنفسي تلك الارض ما اطيب الربى

وما احسن المصطاف والمتربعا

١٩٤٩



## الصيف

فصل الكلال والملال والكسل ، والعجز عن كل نشاط وعمل .

كذلك قال صاحبي حين سأله عن رأيه في الصيف .  
وصاحبي هذا رجل لا يبغض شيئاً كما يبغض الكسل ، ولا  
يجب شيئاً كما يجب النشاط والانتاج ، فهو يغدو على عمله  
فينتج فيه ما شاء الله ان ينتج ، ويروح الى كتابه واوراقه  
فيقرأ ويكتب وينفع الناس بما يقرأ ويكتب . واجب  
الفصول اليه فصل الشتاء لانه لا يجد في هذا الفصل ثقل  
الجسم ولا ضيق النفس ، ولا يحس فيه سأمًا من عمل او ملا  
من قراءة ، وهو لا يكره الحريف لانه يتيح له من العمل  
والانتاج ما يجب ، والحريف عنده قطعة من الصيف المنتهي ،  
وقطعة من الشتاء المبتدئ . فهو بريء مما يبغض الصيف  
الى الناس ، تنكسر فيه حدة القيظ ، ويستشعر الناس فيه شيئاً



من روح ، لانهم يحسون كأنهم يخرجون من النار ويسعون  
الى دار النعيم في طريق تودعهم فيه لفحات من الحر فاترة ،  
وتستقبلهم فيها نفحات من البرد معجبة . فاذا سألت صاحبي  
هذا عن الربيع هزّ رأسه ورفع كتفيه وارسل ضحكة  
ضئيلة فاترة فيها كثير من السخر والاستهزاء . فليس في  
مصر عنده ربيع ، وانما فيها عنده مغالطة بالربيع . سماء لا  
تكاد تبتمس حتى يغشاها العبوس ، ونسيم لا يكاد يرق حتى  
يغلظ ويفسده ما يشور من التراب او من الغبار على اقل  
تقدير ، وزهر لا يكاد يكتسي النضرة والبهجة حتى يشيع  
فيه الذواء والذبول . وهو يرى ان الربيع عندنا مصدر من  
مصادر الحزن والابتئاس لانه لا يكاد يُطمع حتى يئوس ، ولا  
يكاد يدفع الى النشاط حتى يضطر الى الهمود والجود ، ويورط  
في الجود والركود . وصاحبي يؤثر الصراحة على الرياء ،  
والاخلاص على النفاق ، وهو يرى في الصيف والشتاء صراحة  
واخلاصاً ، ويرى في الربيع والخريف بمصر رياء ونفاقاً . وهو  
يحتمل رياء الخريف لانه رقيق ، ويضيق برياء الربيع لانه  
صفيق ، وهو يستحب اخلاص الشتاء لانه خفيف ، وينفر من  
اخلاص الصيف لانه ثقل . وهو كذلك يقضي في فصول  
السنة على هوى نفسه وجسمه ، وعلى ما يلائم طبعه ومزاجه ،  
لا يغير من احكامه شيئاً على كثرة ما تتغير الاعوام وتختلف



الفصول . ذلك لانه لا يكاد يحس تغير الاعوام لانه ماض  
 في عمله ونشاطه ما وسعه المضي فيها ، لا يصرفه عنها صارف  
 ولا يرده عنها رادّ من هذه الاشياء التي تصرفنا نحن عن  
 العمل وتردنا عن النشاط ، فهو منقطع لا يزور ولا يكاد يزار ،  
 وهو متخفف من اعباء الحياة الاجتماعية لا يحتمل منها الا  
 ايسرها واقلها كلفة . وهو يرضى ان يصفه الناس بالنفور  
 والقصور والغرور والكبرياء ، ويؤثر لذة العمل والانتاج على  
 لذة اللقاء والحديث ، وعلى كل هذا اللغو الذي يعيش فيه  
 الناس . ولعله لو خلي بينه وبين نفسه لنسي التاريخ ولم  
 يذكر من عدد السنين والحساب شيئاً . هو كذلك لا يحس  
 تغير الاعوام ولكنه يحس اختلاف الفصول حساً قوياً ، وهو  
 من اجل هذا لا يكاد يحدثك ان لقيته الا عن الحر والبرد ،  
 واعتدال الجو واكفهراره واغبراره ، وعن اثر هذا كله في  
 حسن استعداده للقراءة والكتابة والعمل . وصاحبي لا يحب  
 الرحلة ولا يميل الى الاسفار ، وابغض شيء اليه ان يضطر الى  
 الانتقال من مدينة الى مدينة داخل مصر ، فاما العالم الخارجي  
 فهو يعرفه سمعاً لا عياناً ، ولعله يعرف منه بالسمع اكثر  
 مما نعرف نحن بالعيان . يأتيه ذلك من كثرة القراءة ومن  
 حسن التعمق لما يقرأ وجودة الاستقصاء لما يعنيه بين الاشياء  
 الكثيرة التي يقرأها . وقد هممت غير مرة ان احجب اليه



الرحلة والانتقال من جو الى جو فلم ابلغ منه شيئاً ، وقد  
زينت له امر الصيف في ربوع لبنان وفي اقطار فرنسا  
وايطاليا ، فظهر الحب لهذا الصيف اللبناني والاوروبي وود  
لو يصطاف هنا او هناك ، ولكنه ابغض القطار والسفينة  
والطائرة وعناء السفر ومنغصات الانتقال فأثر العافية واختار  
البقاء حيث هو لا يتحول ولا يريم .

هذا رأي صاحبي في الصيف والشتاء ، والربيع والخريف ،  
وهو رأي ذاتي كما ترى فيما يقول الكتاب المعاصرون ، لا  
يصدر فيه الا عن هوى نفسه ، وراحة جسمه ، وما يلائم مزاجه  
من الظروف . واكبر الظن ان آراءنا جميعاً في فصول  
السنة ذاتية تصدر فيها عن لهواء انفسنا وما يلائم طبائعنا  
وامزجتنا . ونترك حقائقها للعلماء يُبدئون فيها ويعيدون  
ويعلمون ويتعلمون ، لا يعنينا من علمهم او لا يكاد يعنينا من  
علمهم الا اهونه شأننا وايسرهُ خطراً . فالفصول بالقياس اليك  
هي الاوقات التي نجد فيها الراحة والروح فنرضى ،  
او نجد فيها العناء والجهد فنسخط ، او نتردد فيها  
بين ذلك فنسعد حيناً ونشقى حيناً . واعترف بان  
الصيف هو ابغض فصول السنة إليّ اذا اقيمت في مصر ،  
وهو آثرها عندي واكرمها عليّ اذا عبرت البحر او الصحراء  
فرقيت الجبل في اوروبا او في لبنان . ذلك اني لا اطيعق



القيظ الا في جهد جهيد ، وعناء شديد ، ومشتقة شاقة  
تضيق به نفسي ، ويغلق له قلبي ، ويعقد له لساني ، ويضطر  
له عقلي الى جمود منكر لا امل معه في تفكير او  
شيء يشبه التفكير ، ويسوء له خلقي ، او قل يزداد له  
خلقي سوءاً فاصبح ثقیل العشرة ، بغيض الصحبة ، رديء  
المخالطة ، لا اطمئن إلى أحد ولا يطمئن اليّ أحد ،  
واذا اضطرت الى البقاء في مصر اثناء الصيف فزعت  
الى القراءة اعتمد بها من سوء الخلق ، واحتمي بها من لقاء  
الناس ، ولكنها قراءة تمر بالذهن دون أن تترك فيه أثراً  
كأنها تمرّ بشيء املس صلد لا يستبقي مما يمر به  
شيئاً ، واذا اضطرت الى البقاء في مصر اثناء الصيف وحيل  
بينني وبين القراءة ، ولا بد من وقت يحال فيه بيني  
وبين القراءة ، حين يتعب الذين يقرأون لي سواء  
تعبت انا ام لم اتعب ، هممت بالفزع الى النوم ، ولكن  
النوم لا ينفر مني في فصل من فصول السنة كما ينفر مني  
في فصل الصيف ، وله في الصيف نفور بغيض اشبه شيء  
بالمزاح الثقيل . فهو يدعوني مغرباً ، ويتملقني متحجباً ، حتى  
اذا اظهرت الاستجابة له ، ولى مدبراً وكاد يُسمعني ضحكا  
ساخراً عريضاً . فاذا استيأست منه واعرضت عنه ، اقبل  
متريضاً وجعل يدور حولي من جميع اقطاري يريد ان



يأخذني من هنا وهناك . والغريب اني انخدع له دائماً ،  
وانه يعرف مني هذا الانخداع فيقبل ويدبر ، ويدنو وينأى ،  
ويلسم ويعبس ، لا يخلصني منه الا ان يستريح الذين  
يقرأون لي ، فاذا اقبلت على الكتاب فر النوم فراراً لا  
رجعة منه كلما الكتاب وقاء من النوم اي وقاء . ومن  
الناس قوم يقرأون ليناموا ولكنني لم اعرف قط كيف  
يكون الكتاب داعياً للنوم . واذا اضطرت الى البقاء في  
مصر اثناء الصيف لم اكره شيئاً كما اكره الخروج الى  
حيث يستنشق الهواء الطلق ويتبرد من شدة القيظ . ذلك  
لاني واثق بان الاماكن التي يغطاها طلاب الهواء الطلق  
مزدحمة دائماً ، ولست آمن ان القى فيها من احب ومن لا  
احب ، فاخشى ان اسوء هذا او ذاك بما يازمني اثناء  
الصيف من سوء العشرة وثقل المخالطة . فالصيف بغض الي  
في مصر لانه يبغض الي كل شيء ويبغضني الى نفسي ،  
فاذا عبرت البحر الى اوروبا ، او نفذت من الصحراء الى  
لبنان ، فالصيف احب فصول العام الي ، وآثرها عندي ،  
واخفها على نفسي ظلاً ، لان قمم الجبال تضيفني من القيظ  
فتردني الى نفسي وترد نفسي الي وانا مقبل على القراءة في  
نهم لا اعرف له نظيراً في الفصول الاخرى . واذا القراءة  
خصبة اي خصب لا اكاد اقرأ الجملة او الفصل حتى تتفتح



لي ابواب من التفكير والحس والشعور ، واذا انا في حاجة  
الى ان اتحدث حتى أشق على أصحائي ، واذا أنا في حاجة  
الى أن املي حتى اشق على الذين يكتبون عني . والصيف  
يفتح لي خارج مصر فنونا من التجارب : يدعوني الى المشي  
حتى اتعب واتعب من معي ، ويفرني بالانتقال من مكان الى  
مكان ومن مصطاف الى مصطاف ، ويحبب الي شهود التمثيل  
والاستماع للغناء والموسيقى ، ولست ابغض في مصر شيئاً كما  
ابغض الخروج من داري والاختلاف الى الاندية والجلوس  
في القهوات . ولست احب خارج مصر شيئاً كما احب  
الخروج من الفندق وشرب القهوة هنا او هناك .

\*

فالصيف عندي اذا خرجت من مصر ، فصل الحياة  
الكاملة الخافضة المليئة ، حياة العقل وحياة الحس وحياة الشعور ،  
والصيف عندي اذا اقيمت في مصر فصل الحياة الراكدة  
الحامدة التي لا تغني عني ولا عن الناس شيئاً . ولست  
اعرف عاملاً خرجت فيه من مصر اثناء الصيف وعدت فيه  
الى مصر فارغ اليدين ، وانما انا اخرج من مصر فلا اكاد  
استقر هنا او هناك حتى يفتح الله علي بكتاب امليه او  
بكتاب اعده في نفسي لأمليه اذا رجعت ، ذلك الا ان  
تحول الخطوب الثقال بيني وبين ما تعودت . والذين



ينظرون فيما نشرت من الكتب يجدون اكثرها قد ارخ  
من قمة جبل او مدينة في السهل الاوروي . اكثر كتيبي بديء  
او اتم في جبال الالب او في لبنان ، واقلمها بديء واتم في  
القاهرة . ولو استطعت لتمنيت ان تكون الحياة كلها صيفاً  
وان اقضيها مطوّفاً في اقطار الارض ، وان المّ بمصرين حين  
و حين لالقي الاصدقاء والاخلاء ، وادفع الى الناشر هذا  
الكتاب وذاك واكف من الاصدقاء من يقوم على تصحيحه  
حتى تم اذاعته في الناس ، ولكن هيهات ان تكون الحياة  
كلها صيفاً ، وهيهات ان انفقها كلها متنقلاً بين الجبال والربى  
والسهول ، انما الحياة شتاء وربيع علينا ان تنفقها حيث  
يجتمع الجمع اللغوي والجمع العلمي المصري ، وحيث يلتقي  
الناس ليقول بعضهم لبعض ويسمع بعضهم من بعض دون  
ان ينتفع احد بما يسمع او يقال ، وحيث نلقي المحاضرات  
او نستمع للمحاضرات ، فلا نكاد نفيد ولا نكاد نستفيد ،  
ثم صيف وخريف نقرّ فيها من انفسنا الى انفسنا ، من  
انفسنا الفارغة الى انفسنا العاملة ، ومن حياتنا التي  
تقوم على اللغو والعبث ، الى حياتنا التي تقوم على الجد  
والنشاط .

\*

قلت هذا كله لصاحبي ، فابتسم في سخرية ، وقال في



فتور : اقم ما طابت لك الإقامة ، وارحل ما طاب لك  
الرحيل ، فانت رجل بدوي تُكره على الحضارة اكراهاً ،  
وانا رجل حضري لا احب النقلة ولا الارتحال . وكلُّ  
ميسّرٍ لما خُلق له فاحسبْ سيفك ودعني ابغض سيفي فلن  
تغيّرني ولن اغيرك .

١٩٤٨



## دَئِب

•

لا خيل عندك تهديا ولا مال

فليسعد النطق ان لم تسعد الحال

كذلك قال ابو الطيب حين اهدى اليه فاتك ما اهدى  
اليه من المعروف ، فلم يكافئه الا بالحمد والثناء .

وكذلك هممت ان اقول حين اهدى اليّ لبنان ما  
اهدى من المعروف ، ولكن لم البث ان تبينت ان بين  
ابي الطيب وبيني فرق ما بين الشاعر والكاتب ، احدهما  
يقول فتحفظ الكتب وتروي الايام ، والآخر يملّي فيقرأ  
الناس ثم ينسون ، وتسمع الايام ثم تنسى ، ويظل ما املّي  
دفيناً في الصحف والاسفار كأن أحداً لم يُملِه ، وكأن أحداً  
لم يقرأه ، وكأن أحداً لم يلتفت اليه . ومع ذلك فالمعروف  
الذي اهداه الي لبنان ابقى بقاء ، واعظم ثناء ، وابعد اثر ،  
وارفع ذكراً ، من ذلك الذي اهداه فاتك الى ابي الطيب .



فقد اهدى فاتك الى ابي الطيب دنانير سرته حين تلقاها ،  
ثم اختلطت بما كان عنده من مال ، وذهبت فيما ذهب من  
ماله اثناء حياته او بعد وفاته ، واهدى الى لبنان معروفاً  
يتصل بالعقل والقلب جميعاً ضنّ به عليّ قوم هم اقرب الي  
قراية من لبنان ، وهم اكثر منه حصى ، واوسع منه يداً ،  
وابعد منه قدرة ، واطول منه باعاً . حتى تمثلت حين انصرف  
عني مستشار المفوضية اللبنانية بمد ان دعائي باسم حكومته  
الى بيروت لالقي فيها محاضرة اثناء شهر « الاونسكو »  
قول الخطيئة :

سيري امامة إن الاكرمين اباً

والاكثرين حصى من آل شماس  
نعم لم ترد الحكومة المصرية ، او لم يخطر لها اني  
استطيع ان امثلها بين من مثلها في مؤتمر الاونسكو ،  
وهي تعلم حق العلم ان بين الاونسكو وبينني صلات متصلة  
واواصر متينة ، واني كنت من خبراءها مرتين في اقل من  
نصف عام ، واني مثلت مصر في مجلس التعاون الفكري  
الذي كان يقوم مقام الاونسكو قبل الحرب العالمية الثانية ،  
انشأته عصبة الامم القديمة كما انشأت الاونسكو عصبة  
الامم الحديثة .

فكنت خليفاً ان اشهد ، باسم مصر ، مؤتمر الاونسكو



في بيروت ، ولكن الحكومة المصرية ابت الا ان تصانع  
السياسة في امر لا ينبغي ان تصانع فيه السياسة ، وأصبح  
ذات يوم فاذا مستشار المفوضية اللبنانية في مصر يطلب الي  
موعداً ، فاذا تفضل بزيارتي ابلي ان حكومته تدعوني الى  
بيروت لاحاضر اثناء شهر الاونسكو في : « اثر الحضارة  
العربية في الحضارة الاوروبية »

فاقبل الدعوة شاكرآ بعد قليل من التردد في اعماق  
الضمير ، فقد كنت اود لو زرت مؤتمر الاونسكو  
وحاضرت فيه موفداً من الوطن العزيز ، ولكن الوطن  
العزيز لم يرد ، او لم يستطع ، او لم يخطر له الامر على بال .  
فاسافر الى بيروت ولا اكاد اصعد الى السفينة حتى  
ارى قنصل لبنان في الاسكندرية يبلغني تحية الوزير وامانيه ،  
فالتمثل بيت الخطيئة الذي رويته آنفاً .

ولا تكاد السفينة تصل الى بيروت ، حتى ارى مندوباً  
من وزارة الخارجية اللبنانية اقبل يتلقاني ، باسم الوزير ،  
ويهدي اليّ تحيته ، فاهبط من السفينة وانا اتمثل بيت الخطيئة  
الذي رويته آنفاً .

وهذه السيارة تقلني وتقلّ من معي الى افخم فنادق  
بيروت فنزل فيه احسن منزل واكرمه ، ونلقى فيه خير  
ما يلقي الضيف من مضيفه من قري لا يرضي الحياة المادية



وحدها ، وانما يرضى حياة العقل والقلب والذوق والشعور .  
ثم لا اكاد استقر في الفندق حتى تتصل الزيارات ،  
كلها كريمة وكلها حفية ، واذا انا اجد نفسي في بيئة اخص  
ما توصف به ، انها تعرف كيف تبذل الحب ، وكيف  
تهدي العطف ، وكيف تكرم الضيف ، وكيف تأسو  
القلب المكلوم . ٨٠

كرامة أصبح بها قبل ان يرتفع الضحى ، وكرامة  
امسى بها قبل ان يقبل الليل ، وتلطّف انمر به بين ذلك .  
ويأتي موعد المحاضرة الموعودة ، فسل ما شئت عن  
رفق الحكومة وظرفها ورقتها وعن كريم عنايتها وحسن  
رعايتها ، وسل ما شئت عن تهافت الناس على البطاقات  
واستباقهم الى الاماكن وازدحامهم في القاعة ومن حولها  
حتى امسى المستمعون لا يحصون بالملئات ، وانما يحصون  
بالالوف . ليس في ذلك تكثر ولا تمدح ولا غلو ، وانما  
هو الحق الواقع الذي نطقت به الالسنه كلها والصحف  
كلها ، فتصور عطفاً يصدر عن هذه المجموع ، وتحمية تصدر  
عن هذه القلوب ، وتصور جواً عشت فيه اثني عشر يوماً  
لم اجد فيه الا مودة ومحبة وتلطفاً وايناساً .

والقارئ يعرف اني لم اتحدث قط عن نفسي بهذه اللهجة  
التي اتحدث بها اليوم ، واني لم اعرف قط اني استحق ان



اشغل نفسي او اشغل الناس بنفسي على هذا النحو ، ولكني  
مع ذلك اتبسط في هذا الحديث كما ترى لا اتحفظ ولا  
اتخرج لانني احب ان تعرف مصر كيف تلقى لبنان رجلاً  
من ابنائها ، وكيف اكرمه ، وكيف انزله احسن منزل  
وتقبله اجمل قبول . فليس غريباً ان ينوء بي هذا المعروف  
وان يعجزني حمل هذا الجميل ، وان اعرض ما أعرض من  
امره على المواطنين ليحملوا معي هذا العبء وليعرفوا معي  
لبنان هذا الجميل .

فلبنان لم يكرمني لنفسني فحسب ، وانما اكرمني لانني  
مصري ، فتحية موجهة الى مصر ، وجميلة مطوق لعنق مصر ،  
فمن حق مصر ان تعرف هذا الجميل وتقدر هذه العارفة ،  
وتعين ابناً من ابنائها على احتمال هذا الدين الذي لا سبيل  
الى ادائه .

ولا افرغ من المحاضرة الفرنسية التي تحدثت فيها الى  
اللبنانيين وضيغهم من الاجانب ، حتى تطلب الي محاضرة  
عربية اتحدث فيها الى اللبنانيين وضيغهم من العرب ، واذا  
حفاوة بهذه المحاضرة العربية تشبه الحفاوة بتلك المحاضرة  
الفرنسية ... واريد ان اعود الى مصر ، فلا ابلغ ما اريد  
الا بعد الجهد كل الجهد والمشتقة كل المشتقة . ويأبى وزير  
الخارجية والتربية الوطنية الا ان يختصني بمأدبة يفيض عليّ



فيها من كرمه ووده ، ما عجزت بادق معاني كلمة العجز  
عن شكره . ثم اغدو الى الطائرة فاذا مندوبه في المطار  
يودعني ومعه هذه الزهرات التي لا تزال تبسم في داري الى  
الآن ، قد صجبتا ارجها في الطائرة وما زال هذا الارج ينشر  
من حولي مودة وحباً وايناساً ، ويردد في الدار قول  
الشاعر العربي القديم :

❧ ونكرم ضيفنا ما حلّ فينا ونُتبعه الكرامة حيث كانا ❧  
فهل ينكر القاريء المصري الذي ورث عن قديمه حسن  
الشكر وحسن الاعتراف بالجميل ؟  
هل ينكر القاريء المصري عليّ ان اتمثل بشعر الخطيئة  
مرة اخرى حيث يقول :

وان التي نكبتّها عن معاشر  
غضاب عليّ ان صددت كما صدوا  
انت آل شماس بن لأي وانما  
اتاهم بها الاحلام والحسب العدّ  
فان الشقيّ من تعادي صدورهم  
وذو الجد من لانوا اليه ومن ودوا  
يسوسون احلاماً بعيداً اناتها وان غضبوا جاء الحفيظة والجد  
أَقِلُوا عليهم لا ابا لا بيكم  
من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا



اولئك قوم ان بنوا احسنوا البنى  
وان عاهدوا اوفوا وان عقدوا شدوا  
وان كانت النعمى عليهم جزوا بها  
وان انعموا لا كدروها ولا كدوا  
وان قال مولا هم على جل حادث  
من الدهر رُدّوا بعض احلامكم رَدّوا  
وقد لامني أفناء سعد عليهم  
وما قلت الا بالذي علمت سعد .

اما بعد فاني افزع الى المصريين لاشهدهم على ان اخاهم  
قد لقي من كرم لبنان وعطفه ما يعجز عن اداء حقه ،  
ويستعينهم على اداء هذا الحق ، وما ارى الا انهم سيفعلون .  
واما بعد ، فان من حقي ان اشكو وزير المعارف  
المصري الى نفسه والى رئيسه والى وطنه ، فقد كنت احب  
ان تكون الثقافة بمنأى عن السياسة وان يذكر وزراؤنا  
دائماً قول من قال :

❧ اذا انت تابعت الهوى قادك الهوى

الى بعض ما فيه عليك مقال . ❧

١٩٤٨



## شَيطَانِ الْإِنْسِ... وَالْجِنِّ

تستطيع ان تضحك إن كان مزاجك يغريك بالضحك .  
وتستطيع ان تبكي ان كان مزاجك يدفعك الى البكاء .  
وتستطيع ان تتوسط بين ذلك ان كنت رجلاً معتدل المزاج . ولكن الشيء الذي ليس فيه شك ولا ينبغي لك ان تضعه موضع البحث او الجدل ، هو ان حياة الناس ككرة يتقاذفها نوعان من اللاعبين ، في اكثر الاحيان !  
فاما احد هذين النوعين فهم شياطين الجن الذين لانراهم ولا نحسهم ، وانما نرى آثارهم ونحسها ! وهم يستخفون باعمالهم فيلقون الغرور في القلوب ، ويشعون الكبرياء في النفوس ، ويملاؤن الضمائر صلفاً وتيهاً .. واما النوع الاخر من اللاعبين فهم شياطين الانس الذين نستطيع ان نراهم ، ونحس اعمالهم وآثارهم ، وان تكلفوا التستر والاستخفاء ، وهم يستغلون ما يلقي في القلوب من الغرور ، وما يشاع



في النفوس من الكبرياء ، وما تفعم به الضائر من الصلف  
والتيه ... اولئك يدبرون ويقدرّون ، وهؤلاء يعملون  
وينفذون ، والناس بين اولئك وهؤلاء كرات لا تستقر  
الا لتنتقل ، ولا تثبت الا لتزول ... وعلى غير هذا  
النحو من التفسير يعسر جداً ان تفهم اعمال الناس ، وما  
يجني بعضهم على بعض من الشر ، وما يدير بعضهم لبعض  
من الكيد ، وما يهدي بعضهم الى بعض من النكر  
والمكروه .

\*

يقبل شيطان الجن على « فلان » في خلوة من خلواته ،  
فيلقي في قلبه انه أنفذ الناس ذكاء ، وأصدقهم فطنة ،  
وأبعدهم نظراً ، وأدقهم فهماً ، وأصدقهم حكماً ، وأحدهم  
شعوراً ، وأرهفهم حساً ، وأصفاهم ذوقاً ، وأفصحهم لساناً ،  
وهو اذن أجدرهم ان ترتفع به المكانة ، وترقى به المنزلة ،  
ويقصر عليه الامتياز ، وما يزال به يقلب على هذا الغرور  
قلبه ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر ، حتى يستقر ذلك في ضميره  
استقراراً ، واذا هو يؤمن بامتياز ذاك كما يؤمن بطولوع  
الشمس حين تطلع ، وغروبها حين يجنحها الليل ، بل كما يؤمن  
بأنه إنسان موجود يحس نفسه ويحس غيره ، ويحس ما بينه  
وبين غيره من الصلات . فهو اذن قد اعدّ اعداداً حسناً



لتتلقاه شياطين الانس فتفعل به الافاعيل . وهو لا يكاد يخرج من خلوته ويلقى الناس حتى يسمع منهم جهرة بعض ما سمع من شياطين الجن خفية ، واذا هو يقبل منهم ما يقولون ويراه قليلاً ويفرهم - عن شعور او عن غير شعور - بان يزيدوه ويزيدوه ، حتى يكون وحيهم الظاهر مطابقاً او مقارباً لذلك الوحي الحقي الذي القته شياطين الجن في روعه منذ قليل !

وقد أغري المسكين بهذا العبث واطمأن اليه ، حتى أصبح به كلفاً ، واليه ساعياً ، وعليه حريصاً ، لا يستلذ النوم الا اذا داعبته فيه احلام الغرور ، ولا يستحب اليقظة الا اذا لاعبته فيها آمال الصلف والتيه . وهو كذلك كرة تقذفها شياطين الجن اثناء الخلوة ، فتتلقاها شياطين الانس اثناء الاجتماع ، ثم تقذفها شياطين الانس اثناء الاجتماع ، فتتلقاها شياطين الجن اثناء الخلوة ، وهو كذلك تعب متعب ، لا يستريح ولا يريح !

ويتقبل شيطان الجن على « فلان » في خلوة من خلواته ، فيلقي في قلبه انه ابصر الناس بدقائق السياسة ، واقدروهم على احتمال اثقالها ، وابروعهم في حل مشكلاتها وتيسير معضلاتها ، وأحبهم للشعب وابوهم به وأعطفهم عليه ، واعرفهم بمجالاته وامهرهم في إرضائها ، وانه من اجل ذلك احق



الناس بالحكم ، بل هو من اجل ذلك ميسر للحكم لم ييسر  
لغيره ، وصوله اليه ملائم لطبائع الاشياء ، واستمساكه به  
بعد الوصول اليه واجب تفرضه الوطنية ويفرضه الخلق ،  
وفرضه حق الكفايات الممتازة في الاستئثار بتصرف الامور .  
ثم لا يكاد يخرج من خلوته حتى تلقاه شياطين الانس فتقول  
له مثل ما قالت شياطين الجن ، فيجب هذا الحديث الظاهر  
كما احب ذلك الحديث الخفي ، ويستزيد اولئك وهؤلاء  
من احاديثهم الرائعة البارعة التي اصبحت عنده اصدق  
الاحاديث ، لانها تلائم ايمانه بنفسه ، وثقته بتفوقه وامتيازه ،  
ويقينه بان الله لم يخلق غيره ليدبر امور الناس ومرافقهم  
كاحسن ما يمكن ان يكون التدبير . ثم يصبح المسكين  
كرة تقذفها شياطين الجن لتلقاها شياطين الانس ، وتقذفها  
شياطين الانس لتلقاها شياطين الجن ، وهو من اجل ذلك  
تعب متعب ، لا يستريح ولا يريح !

وقل مثل ذلك في اصحاب الاقتصاد ، وفي اصحاب  
المال ، وفيمن شئت من الناس حين ينهضون بالأعباء العامة  
او يفرغون للأعمال الخاصة . . . كلهم كرات بائسة تتقاذفها  
شياطين الجن وشياطين الانس بما تلقي اليها من زخرف  
القول وأحاديث الغرور . . . !

ولو قد اطلعت هذه الكرات على شياطين الجن والانس



حين يخلو بعضهم الى بعض ، وحين يلقي بعضهم بعضاً ،  
 وحين تنفجر افواههم البشعة عن ضحك مروع من هذه  
 الكرات التي يتقاذفونها عابثين بها ، ساخرين منها ، مزدريين  
 لها ، لجاز ان يثوب الى هذه الكرات شيء من عقل ،  
 وفضل من رشد ، وقليل من صواب ، فتثوب هي الى  
 شيء من التواضع وتتحفف من ثقل الغرور . . ولكن  
 شياطين الجن والانس لا يكتفون بتقاذف هذه الكرات  
 وانما يعبثون بها الواناً من العبث تضحك منه انت ، وضحك  
 منه أنا ، وترى فيه الكرات نفسها الجدّ كل الجد ، والنجح  
 كل النجاح ، والامتياز كل الامتياز ! فشياطين الجن  
 والانس لا يكادون يتلقون الكرة من هذه الكرات حتى  
 يقدفوها الى يمين ثم الى شمال ثم الى السماء ، حتى اذا  
 شجعوا من العبث بها دفعوها الى امام ، ليتلقاها الفريق  
 الآخر فيعبث بها مثل ذلك العبث .

وعلى هذا النحو تستطيع أن تفهم سعي الساعين بين  
 رجال السياسة والادب والاقتصاد والمال ، وكيد الكائدين  
 لهم ، ومكر الماكرين بهم ، وتحجب المتحبين اليهم ، ونهالك  
 المتهاكين عليهم ، وقلق الذين يبتغون اليهم الوسائل  
 ويمدون اليهم الاسباب . . . ورجال السياسة والادب والاقتصاد  
 والمال يفرحون بهذا كله ويتهيجون له : يرونه آية من آيات



المجد ، ومظهراً من مظاهر الجاه ، ودليلاً من ادلة التفوق والامتياز ، ولكنهم لا يطلعون ولا يرون تلك الافواه البشعة التي تنفجر عن ضحك مروع بشع ، يتلهى به اللاعبون من شياطين الجن والانس جميعاً !

\*

فمن يبلغ المؤمنين بانفسهم والراضين عنها ، والمطمئنين الى ما تتيح لهم الظروف من تفوق طارئ وامتياز عارض وتسلط موقوت ، والمغرورين بما ينظم لهم من عقود المدح وما يدبج من فنون الثناء ، والمستيقنين لأن الايام اقبلت عليهم انها لن تدبر عنهم — من يبلغ هؤلاء من رجال السياسة والادب ، والاقتصاد والمال ، أن الدنيا توكل بالناس — وبالضعاف منهم خاصة — شياطين الانس والجن ، يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ، وان الذين ينظمون لهم عقود المدح ويحبرون لهم فنون الثناء ، لا يكاد يخلو بعضهم الى بعض ، ولا يكاد كل واحد منهم يخلو الى نفسه ، حتى يسخروا من عقود المدح التي نظموها ، ومن حلل الثناء التي نسجوها . ومن الذين حلوا اجيادهم بتلك العقود ، وزينوا اعطافهم بهذه الحلل ؟ !

من يُبلغ المغرورين والمفتونين من رجال السياسة والادب والاقتصاد والمال ، ان الايام تقبل لتدبر ، وتدبر لتقبل ،



وان الرجل الاديب الاريب ، والحازم الرشيد ، هو الذي  
 يرضى بنفسه على ان يكون كرة تتقاذفها وتعبث بها شياطين  
 الانس والجن ، وإنما يقبل على الحياة جاداً في العمل ،  
 مؤمناً بالحق ، ساعياً الى الخير ، متواضعاً لا يزدهيه  
 الغرور ، واثقاً لا تنال منه الفتن والحزن ، مستذكراً دائماً  
 ان الله قد وعظ الناس فأحسن وعظهم حين قال :  
 « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء  
 فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيماً تذروه الرياح ،  
 وكان الله على كل شيء مقتدراً . المال والبنون زينة الحياة  
 الدنيا ، والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً  
 وخيرٌ أملاً » ! ✓



## مجمع وأحاديث

لا يغضب المواطنون الاعزاء ان نشق عليهم في القول  
ونعنف بهم في الحديث . فقد يجب ان يقال الحق وان لم  
يبلغ من نفوسهم موضع الرضا . وقد يجب ان يقال الحق  
وان بلغ من نفوسهم موضع الغضب وأثار في قلوبهم موجدة  
وغيظاً . والمواطنون الاعزاء قد تعودوا ان يكال لهم المدح  
كيلاً ، ويال عليهم الشناء هيللاً ، حتى رضوا عن انفسهم  
اعظم الرضا ، وسخطوا على غيرهم اشد السخط ، وناموا  
ملء جفونهم والاحداث لا تنام ، وعاشوا ساهين لاهين  
تتخطفهم النوائب وتعبث بهم الخطوب ، فلا يغير ذلك من  
رايهم في انفسهم وحياتهم شيئاً ، لانهم قد افوا الرضا عن  
انفسهم ، والاطمئنان الى حياتهم ، فاصبح من اعسر العسر  
ان نخرجهم من هذا الرضا او نزعجهم عن هذا الاطمئنان ..  
ولا بد مع ذلك من ان يبصروا بحقائق الامر ، ومن ان



يخرجوا من رضاهم ويزعجوا عن اطمئنانهم ، ويعلموا انهم يعيشون ابغض العيش ويحيون ابشع الحياة ، وان هذا المثل العربي القديم الذي اتخذته عنواناً لهذا الحديث لم يوضع الا لهم ، ولم يضرب الا فيهم ، ولم يصور الا ما دأبوا عليه وتورطوا فيه ، من كلام كثير لا يعني ، وعمل قليل لا يفيد !

ولعل المواطنين الاعزاء قد فطنوا ليومين من ايام الاسبوع الماضي كان احدهما عيد الجهاد والآخر عيد الهجرة . وكان من قبلها يوم له في حياتهم خطره اخطير وشأنه العظيم ، وهو يوم افتتاح البرلمان !

ولعل المواطنين الاعزاء قد لاحظوا ان هذه الايام الثلاثة قد انقضت كما تنقضي غيرها من ايامهم المتصلة التي يتبع بعضها بعضاً ، ويشبه بعضها بعضاً كما تشبه قطرة الماء قطرة الماء ، حتى كأن ايامهم على اختلافها وتعاقبها يوم واحد .

مضت هذه الايام الثلاثة كما يمضي غيرها من ايامهم : كلام كثير ، وعمل قليل ، واضطراب في غير حركة ، ونشاط في غير انتاج ، وجمعجة في غير طحن ، ورضا بعد ذلك عن النفس ، واطمئنان بعد ذلك الى هذه الحياة المطردة المملة ، التي لا تنفع الناس ولا تنفع اصحابها . والتي لا



تغني عن الناس ولا عن اصحابها شيئاً !

\*

كانت رائعة بارعة خطبة العرش التي القاها رئيس الوزراء في البرلمان ، صورت لنا الحياة المصرية كأحسن ما تكون حياة الامم : **حكومة جادة لا تنام ولا تنيم** ، وشعب عامل لا يريح ولا يستريح ! وقد رضيت الحكومة عن نفسها فأثنت على نفسها ، ورضي البرلمان عن الحكومة فصفق للحكومة ، وسمع الشعب للحكومة تقول وللبرلمان يصفق ، فرفع الاكتاف وهز الرؤوس ، وترك الخلق للخالق ، واقبل المترفون على ترفهم ينعمون **بغير حساب** ، واقبل المحرومون على حرمانهم يألمون **بغير حساب** ، وتذبذب بين اولئك وهؤلاء فريق من اوساط الناس يأكلون في غير شبع ويشربون في غير ري ، وكلهم راض بما كان ، مطمئن لما هو كائن ، مستعد لما سيكون ، **واثق بان مصر هي كنانة الله في ارضه** ، وهي جنة الدنيا ، وزينة العالم ، وقائدة الشعوب العربية الى المجد المؤثل الذي لا يشبهه مجد ، والفخار الذي لا يدانيه فخار ! **٥**

وفي اثناء هذا كله ، كان المواطنون يموتون مئات ، ويمرضون مئات ، يتخطفهم هذا الموت الطاريء ، ويصرعهم هذا الموت الطاريء ، ومن حولهم ألوف وألوف يتخطفهم



الموت العادي الذي لا يحمله الوباء ، ويصرعهم المرض  
العادي الذي لا يحمله الوباء ايضاً . وفي اثناء هذا كذلك  
كانت ملايين من المواطنين تنعم بالجهل الذي يجب عنها  
حقائق الحياة ، فلا ترى ما هي فيه ، ولا توازن بين  
حياتها وحياة غيرها من ابناء الاوطان الاخرى ...  
وكانت هذه الملايين في اثناء ذلك ايضاً تنعم بفقرها  
الذي يشغلها بالتماس القوت وإطعام العيال وكسوتهم ،  
دون ان تجد ما تسعى اليه ، ولكنه يشغلها على كل حال  
بذلك عن التفكير في حياتها والموازنة بينها وبين حياة غيرها  
من ابناء الاوطان الاخرى !

كان هذا كله يحدث في الصحف من يوم الاربعاء الثاني  
عشر من شهر نوفمبر بينما كان رئيس الوزراء ينيء البرلمان  
بما فعلت الحكومة وبما ستفعل ، موفقة في الماضي والمستقبل ،  
لاتخاذ الشعب من الموت والمرض ، ومن الفقر والجهل ،  
ولتمكين مصر الخالدة المجيدة ، من أن ترفع رأسها العظيم  
الكريم بين الامم الراقية ، التي لم تبلغ ولن تبلغ ما بلغت  
مصر من المجد والفخار !

☆

« جوع وأحاديث » كما يقول المثل العربي القديم في يوم  
الاربعاء الثاني عشر من شهر نوفمبر ! و « جوع وأحاديث »



في يوم الخميس الثالث عشر من شهر نوفمبر ، حين استراح  
الموظفون من العمل احتفالاً بعيد الجهاد الوطني ! وأي احتفال  
بـالجهاد يعدل الراحة لا من الجهاد ، فقد انقضت ايام الجهاد ،  
ولكن من العمل اليومي اليسير الذي يتيح لهم اجورهم آخر  
الشهر ؟! وأي احتفال بالجهاد يشبه الحصول على الاجر من  
غير عمل ، وان كان هناك قوم آخرون تفرض عليهم الراحة  
احتفالاً بالجهاد ، ثم يجرمون أجورهم في ذلك اليوم لأنهم  
أكرهوا على الراحة احتفالاً بالجهاد !

في ذلك اليوم خطب الخطباء ، وتكلم الزعماء ، وذكرت  
الثورة ، وأثني على الشهداء ! وفي أثناء هذا كله كان  
الجيش البريطاني مرابطاً في اماكنه المقسومة له ، لا يحتفل  
بعيد الجهاد ، لان الجهاد لم يرزأه فتيلاً !

و « جوع وأحاديث » يوم الجمعة الأول من شهر المحرم  
سنة سبع وستين وثلثمائة والـف للهجرة . . في ذلك اليوم  
كتب المقالات المدبجة ، والفصول المنمقة ، وأقيمت  
الحفلات الرائعة ، وذكر المسلمون هذا الحدث الانساني  
الخطر الذي تغير له التاريخ وهو الهجرة ، وذكروا ما في  
الهجرة من موعظة وعبرة ! بكى بعضهم وتباكى بعضهم  
الآخر ، واصطنع سائرهم الوقار فلم يتكفوا تباكياً ولا  
بكاء ! ثم لم ينقض يوم الجمعة الا كما تعودت الايام أن تنقضي :



نمود وجمود ، وكسل وركود ، ونوم عميق ، وامعان  
فيما تعودّ الناس أن يمعنوا فيه من هذه الحياة الفارغة التي  
لا تغني عن الناس ولا عن اصحابها شيئاً !

\*

« جوع واحاديث » في هذه الايام الثلاثة ، وجوع  
واحاديث فيما سبقها وفيما سيتلوها من الايام !  
صحف لا تحصى ولا يحصى ما فيها من الكلام ، تصابح  
الناس وتماسيهم ، وثرثرة لا تحصى في الراديو تصابح الناس  
وتماسيهم ، وهراء كثير لا يحصى يشغل الناس عن انفسهم  
وعن حياتهم ، وعن آمالهم وعن آلامهم ، لا يصرفهم عنه  
النوم ، بل هم اذا ناموا وأملت بهم الأحلام ، لم يخرجوا  
من هذا الهراء !

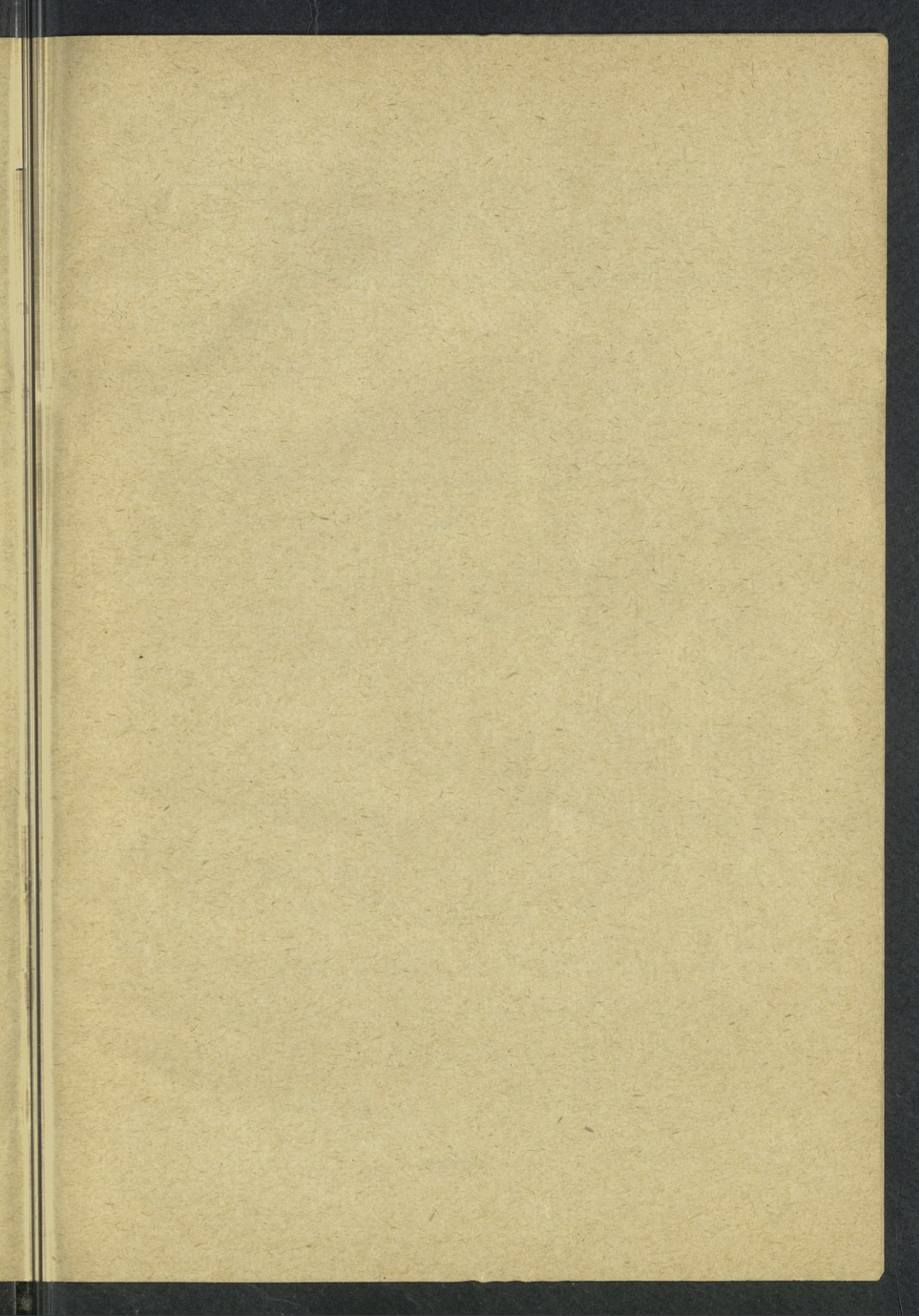
جوع . . . واحاديث ! فنحن افصح الناس كلاماً ،  
وارفع الناس صوتاً ، وابرع الناس في الحركات والتمثيل . .  
ونحن مع ذلك مضرب المثل في البؤس ، والجهل ، والمرض  
والتهافت في الموت ، كما تهافت الفراش في النار ! والله  
يعزي الناس عن آلامهم ، ويسليهم عن مصائبهم بالعمل  
الذي يزيل الآلام ويكشف المصائب ، كما يسليهم بالقول  
الذي لا يمحو ألماً ، ولا يكشف ضرراً ، ولا يجلي خطباً ، وانما  
يجعل اصحابه ضحكة الضاحكين ، وهزة الهازئين !



فلنبتهل الى الله في ان يبرئنا من علة الكلام الكثير ،  
فلعلنا ان برئنا من هذه العلة ان نجد العزاء عن آلامنا  
وكوارثنا ، في العمل الذي يزيل الآلام ، ويمحو الكوارث ،  
ويجلي الغمرات !

١٩٤٧







## فهرست

|      |                              |
|------|------------------------------|
| صفحة |                              |
| ٥    | بين الادب والسياسة : جد وهزل |
| ٢٠   | أدب الصيف                    |
| ٣٢   | حوار في الأدب                |
| ٤٥   | عيد                          |
| ٥٤   | طيف                          |
| ٦٥   | خمير حائر                    |
| ٧٦   | الضائر القلقة                |
| ٨٦   | في الذوق                     |
| ٩٢   | خوف                          |
| ٩٩   | النفوس القلقة                |
| ١٠٦  | الوسائل والغايات             |
| ١١٤  | لبنان                        |



صفحة

١٢٤

١٣٣

١٤٠

١٤٧

الصيف

كَيْن

شياطين الانس ... والجن

جوع وأحاديث



## صدر عن دار العلم للملايين

ق. ل

|     |                              |                            |   |
|-----|------------------------------|----------------------------|---|
| ١٥٠ | للدكتور محمد مندور           | منهج البحث في الادب واللغة | ✓ |
| ٤٠٠ | للاستاذ مارون عبود           | على المحك                  | ✓ |
| ٣٠٠ | ==                           | مجددون ومجترون             |   |
| ١٥٠ | ==                           | اشباح ورموز                |   |
| ١٠٠ | للدكتور اسحق موسى الحسيني    | هل الادباء بشر             |   |
| ٣٠٠ | للاستاذ عبد العزيز سيد الاهل | عبد الله بن المعتز         | ✓ |
| ١٥٠ | ==                           | عبقريه ابي تمام            | ✓ |
| ٢٠٠ | للدكتور نقولا فياض           | كيف تغلب الانسان على الألم |   |
| ١٥٠ | ==                           | دنيا واديان                |   |



انتهى طبع هذا الكتاب على

مطبعة دار الكتب

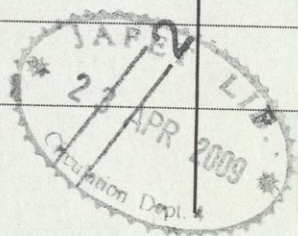
بيروت







# DATE DUE





حسين طه

بين بين

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038329

